خديجة عماري

مذكرات امرأة

مجموعة قصصية

اسـم الكتـاب: مذكرات امرأة
اسـم المؤلـف: خديجة عماري
الترقيم الـدولي: 978-977-6666-19-1

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع المشهرة برقم 24821 بتاريخ 2015/10/1. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

ثمرة الصنوبر

1

عندما كان يبتعد كنت أقترب من كون داخلي لطالما هربت منه أو لم أكن ألمسه، لأكتشفه عندما التقيت بوليد، هذا الفتى الذي يمتلك قدرة خارقة على رؤية ما وراء الجدران، وما أسفل الطابق الذي عليه قدميه، وليد كان جريئا وهو يصف ملابسي الداخلية كي أصدق أن له قدرة خارقة تتجلى في رفع الحجب عن عينيه... قدرة رهيبة لم يجرؤ قط على كشف حقيقتها لغيري أنا. استغربت لم أنا وليست غيري؟ كان علي أن أتحمل فيما بعد أن يراني عارية، ولكنه لم يكن قادرا على رؤية باطن ذهني. وما يجول في فكري وتفكيري. كنا صديقين ولا زلنا، كنت أهرع إليه كلما اعتزلت بي وحدتي وسيطرت علي ظنوني، تعرفت عليه، عندما كنت أبحث عن نفسي، ضمن جماعة تسمي نفسها "هالة النور"، كانوا مثلي ضالين يبحثون عن الهدى، ولم يدركوا إلى ذلك الحين أن كل واحد منا كان يبحث عن القوس الذي يتمم استدارة قلبه.

قبل أن أتعرف على "هالة النور" وعلى وليد كنت سيدة تعيش تحت كنف رجل تحبه حد العبودية، كنت أعتبره السبيل الذي سيقودني للجنة، وكان يحترف حقا فن الإغواء

وهذا ليس ببعيد عليه، فهو رجل السياسة، وأنا سيدة الكلمة. روائية في ربيعي 26، سياسي في عمره التاسع والثلاثين فتاة قروية بسيطة، رجل فاحش الثراء وصاحب الحركات المدروسة. رغم الطبقية التي كانت تحول بيننا كتب لعيوننا أن تلتقي، لا أدري لماذا أمام عيونه البنية فقدت جميع أبعادي، وأحببته. عندما وقعت له روايتي الثانية "العرافة" طلب مني أن أكشف له الورق. وافقت ليس لأنه رجل تتبعه الأضواء، لكن لأنه رجل تبعته عيوني ونبضات قلبي لم يكن من السهل علي أن ألتقي به في أي مكان عمومي فهو خاص. قررنا أن نلتقي في مقهى قريب من شاطئ المهدية بالقنيطرة، مكان جميل وهادئ، يرتاده القليل من الزوار في هذا الفصل البارد، يشهد البحر هيجانا لا يستقطب إلا هواة الصيد، وعشاق رياضة ركوب الأمواج، وعشاقا هاربين من العيون مثلنا معا، وبعض رجال الدرك الذين يركبون صهوة الخيل في جولات متباينة بحثا عن غرقا أو عن عشاق يتبادلون القبل خلف الصخور، أو فوضويين يلسعون رمال البحر بما يلوث رماله. كانت السماء في ذلك الوقت المتأخر من الليل متلبدة، تسمح أحيانا ببروز بعض النجمات اللامعة وأحيانا تخفيها ليبرز القمر بشكل غير جلي، كان يظهر لي حزينا وكئيبا ولا يماثل مرآة تحاكي فرحة قلبي. كانت الطبيعة بكل مقوماتها لا تحاكني ولا أحاكيها، ربما كانت

تحاكي أناسا آخرين حزانى فقدوا عزيزا أو قريبا، مرضى أو منكوبي حروب، لاجئين، أو أناسا فقدوا كل الأبعاد وغطاهم الهم والحزن. كنت أستغرب لماذا المقهى شبه فارغ إلا من النادلين! أخذنا لنا مكانا قرب زجاج النافذة التي تتجاوز طولي، أحببت أن أراقب حركة الأمواج وكيف كان مصارع الأمواج يغزوها كإبرة ذات خيط رفيع من فضة تلم شتات الموجات.

-ماذا تشربين؟

سألني دون أن يترك للنادل حق السؤال، كنت بحاجة لكوب شاي كبير ينظم خلطة أعشاب. وكان بحاجة لكوب قهوة برازيلية مركزة تعدل مزاجه الذي عكرته أشياء أجهلها نقلتها ملامحه فقط. وعددت تأويلاتها، ربما بسبب اجتماع صباحي، ربما تشاجر مع زوجته، ربما يخشى أن يراه أحد برفقتي. لم يكن يهمني الأمر بالقدر الذي كنت أهتم لشخصية جديدة أستجلبها من هذا العالم لعالمي المحبب على الورق، كان شخصية تستحق أن أغرز فيها كدمية من الشمع كل خيوط النفط وأضرم فيها وقود الكتابة فتولد أنوارا جميلة أمام كل من فكر في تتبع نفقي الخاص.

أخيرا أحضر النادل الشاي والقهوة، ليصبح المقهى فارغا تماما إلا منا معا، وموسيقى باخ تفرض نفسها علينا، أنا التي كنت أفضل صوت الموج وكنت أعلق صدف البحر أقراطا في

أذني ليكون البحر قريبا مني. بدأ الرجل يتفحصني ويتفحص تلك التفاصيل التي تجعل مني لوحة يشتهي رسمها، دقق النظر في الأقراط، ثم تحول للجولان بعينيه العميقتين فوق صدري الذي يحمل قلادة بارزة ولامعة، ثم بدأ يدقق النظر في أصابعي الدقيقة التي لا يخلوا واحد منها من خاتم. خواتمي مرصعة بالأحجار الكريمة. وخاتمه الذي يزين بنصره يحمل تاريخ امرأة في حياته.

-غجرية،

-بل، ابتهال فقط.

لم يستطع أن يتمهل أكثر، طلب مني أن أحتسي الشاي وأشرع في كشف الورق، لم أعطه الجواب الشافي الذي كان يبحث عنه، فقد أخبرته ببساطة أنه خلط بين بطلة روايتي وبيني. فابتهال ليست بعرافة ولكن قمر بلى. لم يصدقني، وأسر أن افتح الورق كما تفتحه قمر سيكون الأمر سهلا، الحقيقة الأمر ليس سهلا، كما يتوقع لكن قررت أن أقنعه بحقيقة ما أقول. أخرجت الورق الذي كنت أستعين به للكتابة ولقيادة شخصيات روايتي. خلطت الأوراق جيدا، وسألته عن أي شيء يريد أن يستطلع أكثر.

-كل شيء

أعطيته ثلاث ورقات، واحدة هي رقم واحد رمز "الكوباس"، وترمز للسكن والاستقرار، الثانية رقم عشرة "صورة امرأة تحمل دينارا من ذهب"، و ترمز للمرأة في حياته وقد تتغير المرأة في الورق حسب شكلها، وورقة أخيرة تحمل رقم واحد وتحمل رمز "درهم كبير" و ترمز للحياة المهنية، أعطيتها له طلبت أن يغمض عينيه، و أن يضعها على جانبه الأيسر، تماما حيث قلبه ينبض، فعل كل ما طلبته منه ثم أعاد لي الورقات، قمت بخلطها جيدا مع السبعة وثلاثين ورقة الباقية و وضعتها أمامه في ثلاثة أجزاء مقسمة عشوائيا، حاولت أن أجعلها متساوية ولا أغلب جزءا من حياته على الآخر فالحياة العملية و العاطفية و المستقر كلها تشكل دعامات أساسية بالنسبة لنا.. تتفرق بينها حياتنا الروحية التي غالبا ما تغيب كقطعة سكر في فنجان القهوة الذي أمامه. كان يتتبع أوامري أو طلباتي كطفل مطيع سيحصل على جائزة فور انتهاء مهمته لتبدأ مهمتي... قمت بفتح الورق أمامه لم أكن لأنبس بكلمة، بل اكتفيت بضم ذراعي كتلميذة في المستوى الابتدائي ترغب في إثارة انتباه أستاذها لشدة انضباطها، كان ينتظر من شفتي أن تنبس بكلمات تشرح كل تلك الرموز المرتبة بدقة أمامي، نطقت لغة السماء رعدا وبرقا واشتد تساقط المطر فجأة ودون سابق إنذار، كنا نتوهم أن السكون سيعم فور طرق الليل بابه

بمغيب الشمس، كانت حبات المطر قوية تكاد تعبر زجاج النافذة على جانبي الأيسر، هناك فقط نطقت،-لقد قمت بدور قمر، و الباقي هو دور ابتهال بدأ ينظر إلي فاغرا فاه، ولم يكن ليستوعب أن قمر كانت أداة لتسيير قدر شخوصي فقط، وهو صدق وخلط بين السارد والكاتب، كانت قمر تسرد قصتها وابتهال مرة تساويها ومرة تختفي ومرة تكون الأقوى.. فأنا لست بقمر، قمر تعيش في بلد يدعى "ورق" أما أنا فهنا بجانبه أو بالأحرى أمامه. لم يكن ليقوم بردة فعل عنيفة كوني خيبت ظنه، بل قام من مقعده المقابل لي، ليأخذ مكانه في المقعد الذي قربي، أمسك يدي، وضعها بين كفيه، آه من دفء كفيه، ومن نبرة صوته التي كسرت كل حواجز الموج التي تتعثر على إيقاعها الصاخب رياح الليل. نظر إلى عيني، ليفصح أنه كان ينتظر مني أن أكشف ما يحمله قلبه من حب لي ليس على الورق ولكن في عمق نظراته، الواقع أني استطعت أن أفعل لكن كنت أكذب نفسي، وكنت أقول قد يقع في عشق المرأة التي متى ما فتحت الورق لشخص ووجدته سيئا قامت بقتله قبل أن يقوم من مقعده لتخلص الكون من خطاياه. كان مستعدا للموت بيدي إن كان قلبه سيئا وأن يعيش قربي في أمان إن كان قلبه نقيا. والحقيقة أن كل من زاروا كوخ قمر كانوا يموتون بفعل سحرها، لأنه لا أحد منا يخلوا من قوتين متدافعين

بداخله، قوى الخير وقوى الشر، قمر عندما فتحت الورق لنفسها لم تقم بعد من مقعدها. كان بداخلها جزء من الشر يذوب ويذوب ولن ينتهي إلا إن انتهت. تلك حكمة الله فينا، نصارع الشر بالخير أو الخير بالشر حتى نموت ويكون جانب هو الأقوى على الآخر حسب طباعنا وحسب المكان الذي أخذت منه التربة التي خلقنا منها. نحن أبناء الأرض الذين نشبهها في تنوعها. كنت أحب قمر وتمنيت لو أني قوية مثلها، حاولت أن أخلص يدي من قبضة كفيه الدافئتين، لكني خجلت وأنا أرى اللهفة في عينيه تخاطبني، عند ذلك طلبت منه أن يسمح لي بكشف الورق مزاحا معه. لم أكن أمزح لكن كنت فعلا أشعر برغبة ملحة لمساعدته على التحدث، كنت قادرة على فعل ما تفعله قمر بذكائها، عدا عن قتل أناس أشرار قد يقفوا أمامي، ذلك أني لم أكن أحمل بداخلي نفس نسبة الخير والشر الذين بداخلها.

جلس وهو ينتظر تهربي من اعترافاته، كان ذكيا، وكان مراوغا، كنت أرى الورق مصفوفا بإحكام وبتناغم تام على الطاولة، حاولت أن أقرأ كل ورقة على حدا وأجعلها أشبه بمقطع شعري منسجم وله معنى، كنت أرى بشكل واضح وجلي طريقا طويلا أسفل الرمز الذي يمثله هو، الورقة الثانية عشرة رمز الرجل صاحب السيف، الذي يمثل الرجل الأسمر

الطويل، يظهر أنه صاحب نفوذ، وأمامه طريق طويل لا يؤدي لشيء، كان العدم يفزعني، وكنت أرى اللاشيء يساوي اللاشيء، جمعت الورق لأتفادى الأشياء التي بدأت أراها جلية أمامي. ثم فرقته من جديد، طلبت أن يمرر يده عليه، قبل أن أشرع في ترتيبه من جديد على الطاولة، ذلك الغموض الذي كنت أخشى منه بدأ الآن يظهر جليا أمامي. حاولت ألا أتتبع نفس المسار على الورق، كان جزء من حياته قد مضى سعيدا والجزء الباقي لم يكن إلا لامرأة تقف بجانبه، امرأة لم تره بعد، بدأت أخبره عن الحب، وبأنه سيعيش حياة سعيدة، أخبرته أنه قريبا سيغادر عالم السياسة بحثا عن سعادته، أخبرته بأنه سيتلقى خبرا سعيدا سيغير الكثير بداخله. لكن العدم كان يلح بنفسه عليه. كان يرغب بالمزيد، وكان يرغب بأن يرى إن كان سينعم بحياة زوجية سعيدة، أو سيكون له أبناء من المرأة التي يحب، كان يسألني عن كل تلك الأشياء، والحقيقة أني لم أكن لا أنا ولا غيري قادرين على كشف حجب الغيب، كنا نرى ما كان الله يسمح لنا برؤيته فقط، كان الورق يعكس مدار ما قضي لهم في السماء وما عاد غيبا.

الورق يشبه قرص شمس ينعكس بقوة على مرآة كبيرة تعمي الناظرين قلة من هم قادرون على النظر في خسوف الشمس دون أن يؤذيهم...رأيت شيئا من الشر يحيط به ولم

أستطع أن أدرك إن كانت هذه الشحنة السالبة منبثقة من دواخله أم من دواخل غيره! نصحته أن يترك السياسة ويعيش لنفسه، لكوني أدركت أهمية الوقت الذي يحتاجه ليكون. اكتفيت بما قلت وجمعت الورق ثم وضعته في منديل وردي ثم في الحقيبة...محاولة إعلان رحيلي.

تفرس في جيدا وكان يهتم بكل حركة أقوم بها، ولم يتوان لحظة في تأكيد كوني قمر. وهو يردد:

-ساحرة صغيرة، مثقفة، وروائية.

-لست ساحرة، ولا مثقفة ولا شيء، أنا امرأة تتبع حدسها فقط.

كان يتساءل عن كيف كنت أقدر على فعل ذلك، فكثيرة هي الأشياء التي صادف كشفي لها على الورق أنها حقيقية. وكان يكذبني كونه لا يؤمن بالأشياء التي قلتها، والحقيقة أنه كان يريحني عدم تصديقه، فهمت فيما بعد أن كل ذلك كان حجة ليستدرجني لهذا المكان الذي حجزه لنا فقط ليعترف لي باهتمامه الشديد بي. في ذلك الوقت كنت قد خرجت من علاقة حب فاشلة، صعب علي جدا أن أشفى منها لأفكر في رجل وسيم مثير مثله، يضمن لي قربه أشياء ربما لم أجدها في غيره. هذا الرجل لا يعرف شيئا عني ويريدني، نظرت إليه ثم غضضت الطرف عما رغبت بقوله، لكن إسراره على أن أكون

صريحة معه جعلني أفقد كل الأبعاد التي يفرضها قانون المجتمع علي لأجعله يفهم أني لست الصالحة للحب، ولا للزواج، كان يتحدث ولم يكن الرجل الذي يخضع نفسه للممنوع، تماما مثلي، كان قادرا على الهرب من الكل ليفعل ما يريده. وأمام صدقه لم أجد من بد لألتزم الصمت، أي نعم ذلك كان أول لقاء لي به، كثيرا ما التقى بي ليلا على مدينة "ورق"، ولعله جلس يوما أمام قمر ونفذ إلى قلبه سحرها ومات، لأنها لو وجدته خيرا لاتحدت مع ملائكة قلبه لتخلص الكون من الشر. نحن البشر العاديون دوما نقع في الوسط. كيف لي أن أكون جريئة مثلها، كيف لي أن أخبره؟ جرأتي تقف في حدود الورق، لا أبعد من ذلك.

-نظام أنا امرأة متطرفة، وأنت رجل سياسة لا يمكن أن نلتق.

ابتسم، وبدأت الشخصية الديبلوماسية تظهر في كل حركة مدروسة يقوم بها وهو يجدد بناء المسافات عندما عاد لمقعده الأول أمامي، قصد المواجهة و فرض إخراج بواطني الصامتة التي لم اسمح لأحد بالكشف عنها، لكن في تلك اللحظة والموج بدأ يهدأ والسحب بدأت تنجلي عن وجه للقمر جميل، أمسكت بدوري كوب الشاي الذي فقد دفئه عوض مسك يديه، كنت في تلك اللحظة أجوب دواخل نفسي، و أتخيلني في

غرفة صغيرة تعود لكنيسة عتيقة في تلك الزاوية بعد أن أشعلت الشمع وقلت كل الأمنيات، قررت أن أعترف لرجل دين يدعونه الأب، في تلك الغرفة الضيقة، كان من الصعب عليه أن يعرف ديانتي، ولا انتمائي.. تماما كهذا الرجل الذي يجلس في المكان المقابل لي. فكرت في شيئين اثنين، إما أني لن ألتقيه مجددا بعد هذا الاعتراف أو أني سأكون المرأة التي تقف بجانبه إلى المدى اللامحدود في الورق. أنا فتاة فقدت أبويها في سن مبكرة جدا، يمكنك أن تعتبرني لقيطة، ولكن يمكن لعمة تقطن في الريف أن تثبت أن لي نسبا، كنت بليدة جدا ولم أفلح في متابعة تحقيق تفوق دراسي يضمن لي فيما بعد لقمة عيش محترمة، لكن وأنا أكبر اكتشفت أني محقة فكل تلك المقررات الدراسية تجعل الفرد بليدا، ومعتوها ومشوها من الداخل تعلمنا أن نأسى على ما مضى، تشلنا وتسمح لنفسها بأن تقسم مراحل حياتنا لمراحل قط لم أعترف بها. يبدأ وعينا الداخلي بسن مبكرة يعتبرونها حسب منظوماتهم مرحلة طفولة ومراهقة. أنا لا أعترف بكل هذا، اجتهدت وتعلمت وحدي، كنت عصامية بكل المقاييس ولم أومن بوجود أدوار خاصة بالرجل والمرأة بل آمنت بأدوار متداخلة يحققانها معا. قاطعني وقاطع حماسي، وكان يحسب أني أخاطبه كرجل سياسة ومواطنة عادية لها مطالبها، لم أسمح له بأن ينظم الحوار

حسب رغبته بل بسلطة اللغة استحوذت على كل الفضاء الشاغر لأملأه بخطبتي و ببوحي كل ما أراد أن يضيفه، أني محقة وهذا كله لن يعوق أن نكون معا.. لكن القادم كان أقوى، فأنا فتاة فاقت حدود الحرية، فتاة متعددة العلاقات لم أكن متزنة في واحدة منها ولا أستطيع الاتزان، لم يبدأ الأمر بمحض الصدفة، فقد كنت فتاة وحيدة ضائعة تبحث عن نفسها وكنت أحسب أن نفسي بين كفي رجل ستكون في مأمن بعيدا عن مخالب الوحدة، الكثير ممن تعرفت عليهم كانوا يحجزون المرأة في رغباتهم، لكننا أكبر من أن نحتجز، فكرت في أن أتزوج بسن مبكرة، لعل الرجل يكون قادرا على سد كل الفراغات التي تركها غياب الأبوين و الإخوة، كان زوجي السابق أيضا رجل سياسة، همه كان محجوزا في كيف سينهب خزينة البلاد، كنت أستغرب كيف له أن يقتني قصرا لو بقي هو وجد جده يدخرون المال ليبنوه لما كفوه أجره.. كنت دوما أطرح السؤال والتساؤل العميقين عن كيف لضميره أن ينام في الوقت الذي كنت أصحوا ولا أقوى على مجابهة ضميري، كيف لي أن أكون زوجة لرجل لص، لم يسرق واحدا بل بلدا بكل مواطنيها. لا أنكر كنت في البداية مثارة بكل مظاهر البذخ في حياته، كان يوقظني باكرا لنبدأ يومنا ونستمتع به، رحلات و اكتشافات، ملابس و مجوهرات، سيارات وقصر يجعلني أستشعر أني

ساندريلا زماني، عوضني في بداية زواجنا عن كل ذلك الضياع الذي مس حياتي السابقة، حتى بدأ ضميري يستيقظ عندما سمعت خلسة ذلك الحوار الذي درا بين البستاني و الطاهي، وهما يتحدثان عن زوجي الطاهر النقي، بدأت أتغير كثيرا، وضميري يستفيق ويصحو مع كل ملكية جديدة، كنت ألوم جهلي كثيرا، ووعدت نفسي بأن أجعلها تتعلم وتدرس لتفهم وتدرك الوجه الحقيقي لكل الأشياء التي تلمع وكأنها ذهب، وعدت نفسي أن أجد طريقة أسترجع بها حقوق الناس ولو كلفني الأمر خسارة هذا الكهف الذي لا يمتلكه إلا علي بابا، من يمتلك كلمة السر، كلمة النفاق والخداع، ليته كان علي بابا ورد الحقوق لأهلها، لذلك كرهت السياسة والسياسيين بدأت أتغير تركت دلال الأميرات ولبست جبة المناضلات، بدأت أضع أمام وجهه كل ليلة المرآة، وكنت أطلب أن يعتبرها ضميره الذي يعرف عنه كل شيء لكنه في سبات عميق، طلبت أن يحاول إيقاظه، لكنه نائم نوم روح تمتلك بداخلها ملاكا وشيطانا، شيطانا بشعا مريعا، أصبح منذ ذلك اليوم يمارس علي سلطته الذكورية البرجوازية، وكنت أمارس عليه فعل النساء المتمردات.. وفي لحظة ما هدأت روحي، بدأت بالانكباب على المطالعة والتعلم، وكنت أشبه بروبنهود، أقيم العدل في مملكة فقراء مثلي.

عدت من جديد لحضنه، أمارس الحب بكل برود، وأنهب من مال الشعب لأعيده لهم، وكنت أعتكف على التعلم والدراسة، في تلك الغضون اكتشفت كم مساعدة الناس تقربنا من الحياة، غير أن ذلك كله بدأ يوجعني ويجعلني أحتسي من السؤال الشيء الكثير، لماذا؟ لن أطرح عليكم تساؤلاتي الآن سأتركها لاحقا. هكذا وأنا أبحث وأكتشف وجدت أني قادرة عن خط أشياء كثيرة وجميلة، وربما هي قادرة على تغيير وتطهير دواخلي، بدأت محاولاتي الأولى بقصاصات نثرية وشعرية، لم أحاول البتة أن أعرضها على متخصص بل اكتفيت بفتح حساب فيسبوكي، بدأت أنشر كل تلك الأشياء التي أكتبها. تفاجأت بعد ثلاثة أسابيع من نشر القصاصات من نسب الإعجاب والتفاعل بالتعاليق والرسائل على الخاص من تحقيق صدى مهم، زاد من حزمي، ورفع من همتي. لدي شيء مهم في هذه الحياة، اللغة وسطوتها هكذا بدأت ككاتبة!

انشغالي عن زوجي جعلني رغم سوئه أشتاق له وأحبه، لو لم يكن لصا لما وجدت في روبنهود ولا علي بابا، ولا الكاتبة، فبدأت أدون لزوجي رسائل في أسفاره وغيابه، إلكترونية وورقية، رسائل محرق حبها، وكان على الرسائل صدقا يحبني، وتعاهدنا على أن نكتب لبعضنا، ولم أنهه خلالها عن العدول عن فعل نهب الخزينة، فقد كنت أنفق ما أشاء على من أشاء ولم يكن له أن يعارض ما دمت دوما أظهر بالمستوى المطلوب، رفعت شهرتي من شعبيته، بدأ الناس يحبونه لأجلي، ويدعون له لأجلي، ولم يكونوا ليفصلوا بيننا، من اقتربوا منا معا فقط فعلوا...

تعلمت بسرعة فائقة، واقتربت من أشيائه الخاصة، فوجدت الباب الذي فتحت يرتد علي لهيبا من نار محرقة لافحة، إيه كم عدد النسوة اللواتي يعرفهن، كم عدد عشيقاته، كم هو كاذب ومخادع ومجرم قلوب وسفاح جنس، لم أكن الوحيدة في حياته كنت الزوجة بعقد شرعي يشهد على نفاقه وعلى خداعه، كيف يمكن لورقة أن تكون وثيقة ثبوت زوجية، أليس الزواج بأعمق من طلب وقبول ومهر وتوقيع؟ لم أعد أدري، صدقا أنا ضائعة وكم من سؤال ذلك الذي يطرح نفسه علي، ولا مجيب كيف كان له أن يتفاعل حبا في رسائلنا

وعلى فراشنا وعلى مدار السنوات التي عشناها معا، نضجت فيها فعلا. بدأت أعيد تمرين المرآة أمامه، وكان يعدني أن تكون كل خيانة هي الأخيرة، فهمت حينها لم اختارني فتاة ليست بالمتعلمة! لماذا قرر أن يدخلني قصره ويأتمنني على أسراره! غير أني كنت المارد الذي حجزه في القمقم وثار يوم نال حريته، أصبح يعنفني أكثر وأصبح لا يتقبل ثورتي، وكان يعدني وعد حر أنه سيقتلني ويرمي بلحمي قطعا مقطعة باحتراف لكلاب حديقة قصره، تلك الكلاب التي لطالما أطعمتها بيدي، وربت بيدي على ظهرها، هل يمكن أن تكون غادرة وخائنة. أصبحت علاقتنا تسوء، وفي لحظة ما حاولت أن أصلح كل شيء، انتظرته على العشاء كما كنت أفعل قديما، لحسن الحظ أنه لم يختر المبيت في مكان ما ويعتذر بحجة سفر طارئ، تحدثنا عن كل الأشياء التي تسوؤنا، تحدثنا عن كيف يمكن لنا أن نصلح علاقتنا، تحدثنا وبدأ صوتنا يرتفع، وكان لزاما على الخدم التظاهر بالنوم، سحبني لغرفة النوم، وانهال علي ضربا وركلا، كما فعل ذات يوم رجاله مع أصحاب حق جاءوه أمام عتبة قصره الذي أصبح يحتجزني فيه. بدأت استغل الدم الذي ينزف من أنفي وجبيني، وفمي لأعبئ أقلامي وأدون على الورق مواجع النساء، ومواجع الوطن، حتى وجدتني أنهي في ظرف عشرين يوما رواية مكثفة، تواصلت عبر الفيسبوك بدار

نشـر، وقـدمتها لهـا، بعـد أن قـرأت الإعـلان الـذي وضـعته على صـفحتها ثـم تقاسـمه معي المتتبعـون، إعـلان يخـص من يرغـب بنشـر عمل إبداعي تشـترط إبداعيته وجودته، ليخرج للوجود، كان الأمر بالنسـبة لي ضـربا من المسـتحيل، كل ما دونته، كنـت أحـاول بـه أن أخـرج مـن سـجني الـداخلي والخـارجي معـا، كنـت بحاجـة لأن ارتـاح، فقـط. لـم تكـن مطـالبي كثيـرة البتـة، كنـت أحتـاج لاسـترجاع إنسـانيتي التـي حطمهـا هـذا الرجـل المـاكر. خرجـت مـن حسـابي و بـدأت أنتظـر أن يـأتيني الفطـور لأجـد سبيلا للخروج، فقد أعياني سجني وأرهقت من تنكره لي، قررت ألا كلمه في شيء، قررت أن أعيش لوحدي في قصره ريثما أجد عملا لأسـتقل بنفسـي، والصـدق أقـول كنـت أحـس أني أعـيش بكرامة لأن جزءا يسيرا من ميزانية هذا القصر هي الحق الذي أستحقه بموجب العدالة السماوية، هكذا استطعت أن أحقق توازنا داخليا، لأعيش بعض الوقت بسلام، استطعت أن أخرج أخيـرا، ارتـديت ملابـس بسـيطة، لا تعكـس أنـي زوجـة وزيـر، وخرجـت أجـوب الأرض مشـيا، اشـتقت للسـماء الصـافية، وللشمس الساطعة، اشتقت للون الورود الحرة الطليقة بعيدا عـن ذلـك القصـر الـذي يماثـل سـجنا مـذهبا، هـل يحلـو للمسجون فاقد الحرية أن تكون قضبان سجنه من ذهب؟

في طريقي صادفت رجلا يقارب عمره الستين، مظهره يشي أنه من رجال الله "بوهالي" كل كلامه حكمة، لا ينظر كثيرا للبشر، لا يعبأ بشيء أو لشيء عيونه منشغلة بالسماء وزرقتها وصفائها، يرتدي جلبابا أبيض يحمل في يده اليمنى سبحة، وفي يده اليسرى عصا طويلة، ما إن اقتربت منه حتى أدركت أنه كفيف، حاولت أن أفهم تلك الأشياء الكثيرة التي يرددها، فهمت البعض منها، وبقيت واقفة كالصماء أمام الكثير منها:

-يا الظالم رد بالك راني عصا تابعة غنمك،

راني إبرة تابعة الشرك في توبك

...

ارتعدت فرائسي تراني أساهم في ظلم الناس؟ قررت أن أتبع الرجل، قلت في نفسي أنه كفيف لا يبصر ولن يراني، فإذا به ينتظرني في نهاية الطريق، لم يتوقف عن الكلام، بل وضع يده على كتفي، وكأني مرشدته، لم أكن أدري إلى أي مكان يمكنني أن أقوده، بكل بساطة كان هو يقودني، وبدأ يتحدث مكاني، تسارعت خفقات قلبي وهو يحدثني ويتلفظ باسمي، كيف عرف اسمي "ابتهال"، وكيف عرف أن لي من الهم ما يهد الجبال ليترك ابتهال بعد أن باح بكل أوجاعها ونصحني أن أطالب بوثيقة حريتي و كان يقصد "الطلاق"، كيف لم أفكر قط في الطلاق، ما دمت زوجته فأنا أشاركه في كل جرائمه، بسطت

للساني القول، لكن الرجل كان أفقه من أن أبوح له بتفاصيل تملأ أهمية الصمت بالنسبة إليه، كان هناك كون حولنا يجيد الاستماع إليه، حاولت أن أكون مثله عندما جلسنا في غابة الفلين.. بحجب النور عن عيوني، واستدعاء كل حواسي كما الرجل، استلقيت على ظهري، شعرت باسترخاء تام، وأنا لا أراني إلا من الداخل، كنت أذوب مع كل الدبدبات التي ترددها الأرض والشجر والطير، شعرت أني عصفور يطير وهو مدرك جيدا لغايته، لا شيء يحول بينه وبينه الحياة. لا أدري كيف غفوت، ورأيتني طفلة تسبح في النهر وتقول "يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر" جرفني النهر وألقى بي في البحر، وضعت.

استفقت بعدها، ورحت أبحث عن الرجل ولم أجده، هل كان جزءا من الحلم، لكنه الذي قادني لغابة الفلين، أردت أن أناديه لكني لم أعلم له اسما، دعوت له، وكان من بين دعواتي أن ألتقي به من جديد إن لم يكن حلما...

بدأت فكرة الطلاق من جديد تطرق بنفسها على بابي، لكن كيف سأتدبر أموري؟ لم يكن ذلك السؤال الأهم، فالأهم أن أجرؤ على طلب حريتي. عدت أدراجي للبيت، بعد غياب دام لساعات طويلات، لم أشعر بالزمن، وكم هو غريب هذا الزمن، كيف يكون النهار هو نفسه، وأحيانا نشعر به سرمديا لا ينتهي، وآخر نشعر به كنسيم الفجر.

وجدت زوجي العزيز في الانتظار، أول مرة أغيب فيها عن البيت دون إذن، ودون سابق إنذار كان يخشى من هروبي، ومن أن أصبح فضيحة وزارية لجنابه، من جديد يبحث عن سبب ليعنفني بعد أن ساقني لغرفتنا الخاصة وأغلق الباب. انهال علي ضربا، مزق ملابسي، ورأت عيونه كم أنا شهية، تحول فجأة لرجل طيب، لطفل يحتاجني ليهدئ روعه، لرجل لم يمارس الحب منذ زمن كيف و سكرتيراته لا ينتهي عددهن، كيف وخليلاته الله وحده يعلم بعددهن. جردني من ملابسي تمزيقا، وراح يبصم في كل مكان قبلة، أحسست في تلك اللحظة أني أنثى وأحتاجه، كان قلبي يبغضه، لكنه أحبه في لحظة ضعفه، لا زلت ساذجة في الحب! ربما لأني لأزيد من شهر لم أمارس حقي الطبيعي، لكن وأنا أرغب تركني. أتقلب حاجة وشوقا ورغبة، توسلته أن ننهي الأمر، ولكنه كان يرغب بتعذيبي بطريقة جديدة، ليعلمني درسا مفاده "ألا حياة لي دونه ". اتجهت للحمام ولا أدري لي في هذا الكون من اتجاه، تركت جسدي يسبح في بركة من الوجع، كان الماء يتقاطر على رأسي فقدت الإحساس بأنوثتي وبأني امرأة تجعل رجلا يقبل قدمي. تماما كما كان يفعل، لكنه ما عاد سرعان ما رجع بي تفكيري للحكيم الذي التقيت به، بدأت جديا أفكر في الطلاق، ماذا قد

يبقيني مع رجل مثله الحب، الجنس، المال، الطيبة، الدفء، الأسرة، لا شيء.

بدأت تمضي الأيام على ما هي عليه، إلى أن جاء زائر يزور بيتنا، صحفي يرغب باستجوابي، سألت لم، إن كان الأمر متعلقا بزوجي فحتى يعود، لكن الأمر كان متعلقا بابتهال الكاتبة. ما أدراه أني كاتبة؟ رحبت به، وطلبت دقيقة، خلالها عدت لتصفح بريدي الفيسبوكي، وردت آلاف الرسائل من الناشر الذي راسلته، ومن المتتبعين الفيسبوكيين، ومن صحفيين يطلبون لقاءات، كله في شهر ونصف إن كنت أحسن العد، ما الذي جعل الناشر يطبع عملي بدون إجراء عقد؟ توخيت تلك الطريقة في النشر ليتم الأمر بمصداقية لا لكوني زوجة وزير، ابتغيت النشر مع دار أجنبية كي لا يتم التوصل إلي لكن ماذا يفعل الصحفي هنا؟ ... إنها رواية "ثمار الصنوبر" لم أكن أعلم أن ثمارها قد تشعل النيران بغاباتي. أعجبت رغم هول المفاجأة بغلاف روايتي، طفلتي الأولى، تمنيت لو أضمها لي. عدت للصحفي، استقبلته بحفاوة، هو أول من زف لي الخبر، لم أكن أنوي العودة للفيسبوك ولا التواصل من جديد، غير أنه دلني على الطريق للعودة لنقطة الحرف نقطة بداية الكون، طلب مني أن أجيب على مجموعة من الأسئلة، وكنت أجيب ببساطة متخلية عن دبلوماسية زوجات الوزراء، نسيت أصلا

أني أشغل تلك المكانة، كنت أتصرف كما يجدر بابتهال أن تفعل، بعد أيام وجدت صورتي في الجريدة "زوجة الوزير تكشف فضائحه في رواية" سأل زوجي:

-هل هذه أنت؟

بدوت نجمة متميزة في الصورة، لكن لم أقصد قط أن أفضح زوجي، كنت أكتب، وعوض أن أخفي اعترافاتي رحت أخبئها في بريد الناشر لكنه آمن بها وصدقها، هل الصدق الذي فيها ما جعل زوجي موضع اتهام، وجعلني موضع الشكوك، لم أقصد قط أن أتهمه، وقد صرحت للصحفيين أن ما أدونه تخييل ولهم أن يؤولوه كيف شاءوا. خسرت زواجي بعد أن شكلت روايتي محط اهتمام أعدائه، الله شاهد أني لم أنوي أبدا تدميره، ولا تدمير زواجي بهذا الشكل، لكن كما قال لي الرجل الحكيم لو أنه كان نزيها وأمينا لما أثبتت عليه تهمة. استقال من منصبه وهاجر الوطن، لا أدري ما حل به، لن يكون أفضل من اللصوص الذين يخبئون ثروات الوطن في بنوك أجنبية.

3

بدأت أعيش من عائدات كتبي، اكتفيت باستئجار غرفة في فندق متواضع، ورحت أقسم حياتي بين الكتابة والسفر. تعرفت ذات صباح وأنا على مثن قطار متجه نحو مدينة مكناس برجل أمريكي، جلس إلى جواري، وراح يسألني عن أهم المعالم التي تميز مدينة مكناس، ورحت أجيبه بإنجليزيتي الركيكة، وراح يسألني تبسيط عربيتي لنكون قادرين على التواصل، تهت في عينيه، وفي حريته، بدأ كلانا يقدم بطاقة تعريفية عن السعادة والحرية، ووصلت معه لحقيقة أنهما وجهين لعملة واحدة. وصلنا أخيرا وتمنيا في سرنا لو أن المدينة لا تزال أبعد مما هي عليه، غادر القطار قبلي، دون توديعي، لم أكن مهمة لدرجة الاكتراث بتوديعي، فأنا رفيقة طريق فقط. وقد تفهمت موقفه، غير أن عيوني اتسعت وأنا أجده أمامي ينتظرني، ورحت أغض الطرف عنه، ربما له غاية لا أعلمها، غير أني وجدته يخطو نفس خطواتي، تذكرت الرجل الحكيم، أغمضت عيني ورحت أتبعه ومشينا سوية، وكأننا نعرف بعضنا لا حضارات تفرقنا ولا لغة تحول بيننا، لا سياسة ولا اقتصاد ولا إعلام. إنسانيتنا فوق كل شيء، طرت كالطير الحر الذي كنت في جعبته أتجول الأكوان، لنرسو معا في مقهى بساحة

الهديم، جلس إلى جواري مشدودا لسحر الحضارة، وراحت المسافات تفرض نفسها علينا، راح يسألني عن الرجال الذين يروضون الأفاعي، وعن مربي القردة، وعن الشاي في بلدي، وعن لون "النقانق" التي تسارعنا معا لأكلها وهي ساخنة تكسر الصمت الداخلي الذي يفرض نفسه علي في صورة ذكرياتي. انتهى النهار، وكان على كل واحد منا أن يعود أدراجه، دعاني للبيت الذي يستأجره في مدينة فاس، وها أنذا أبدأ طريق تمردي بلونه الآخر.

مضيت مع رافاييل باتجاه مدينته، كانت تلك ليلته الأخيرة وكان يرغب بأن أكون إلى جانبه، لا أدري لم أنا نفسي رغبت بذلك، جلست بجانبه مرة أخرى، ورحنا نأكل حبات الذرى، وهو يغني لي أغنية لطالما أحببتها If tomorrow never com ، ماذا لو أن الغد لا يأتي...

لا أدري ما الحوار الذي كان يدور بداخله، وأنا أدخل معه منزله، فقد لزم الصمت، وهو يقول لي بإنجليزية سريعة:

-serve yourself

وهي عبارة يقولها الإنجليزيون لضيوفهم، ليخدموا أنفسهم بأنفسهم دون الحاجة لصاحب البيت، أحسست بأنه يرفع الكلفة بيننا، وهذا أمر أراحني، لكن مطرقة التساؤل راحت تفرض بنفسها علي، لم قبلت القدوم معه؟ لم ضربت عرض

الحائط كل الاعتبارات، وما أختزله من عادات وتقاليد وعيب وحرام. أصلا لم أفكر يوما فيها كلها، كان رافاييل يستحم في الوقت الذي قمت بتشغيل الموسيقى، حاولت اختبار سيجارة من سجائره الموضوعة على طاولة الصالة، غير أن دخانها خنقني، اشتد الزكام علي، رعد زكامي جلب برقه الخاطف إلي، جاءني وهو يحيط خاصرته بمنشفة بيضاء وعلى رأسه رغوة الصابون، وعيونه لا يكاد يبصر بها، راح الزكام عني وعوضه الضحك، ذهبت إليه ورحت أعبث بشعره الممزوج برغوة الصابون، والفقاعات، ولأني أفزعته كان عقابي أن يحملني بين ذراعيه للحمام ويجعلني أغرق في الحمام وسط الرغوة، لا أنكر في تلك اللحظة توقف الزمن، و بعث في أملا جميلا، متجددا للحياة، نسيت أني عدوة نفسي، ونسيت كل القهر الذي عشته، بدأ حينها جسدي يشفى من حروقه و من أوجاعه وآلامه، بدأت أستعيد ابتهال بين يدي رافاييل... بدأنا نلعب بالماء و الصابون، و نغني من جديد ماذا لو أن الغد لن يأتي.. وكان مدركا لاختياره، انتهى الاستحمام، أعارني ملابسه، أعد لنا القهوة، ليشغل غرفة نومه لوقت يسير شعرت بالوحدة أمام التلفاز وأنا أنتظره، لحقت به، وكرهت الحقائب التي كان يرتبها، كرهت سفره، وتلك الحياة التي تنتظره هناك من جديد، سيكون هذا اليوم مجرد مغامرة بالنسبة إليه، لكن

بالنسبة إلي...جلست على سريره، وبقيت مشدودة إليه وهو يرتب أغراضه، انتبه إلي بادلني بابتسامة، ثم باعتراف:

-عيناك جميلتان،

ثم صمت، أخيرا انتهى، وجلس بجواري، في لحظة ما راح يقترب مني، ويقترب وأقترب، أغلقت النور.

-سأعود قريبا من أجلك.

يمكنني أن أعتبر تلك ليلة خطيئتي الأولى، رحل رافاييل، استمرت رسائلنا لمدة شهرين، بقي عطره عالقا بخياشيمي، بعد أن انقطعت المراسلة بيننا، قال لا يمكنه أن يستمر مع شبح. لم أكن أنتظر منه أن يكون وفيا ولا متزنا فعلت ما كنت قد رغبت به تلك الليلة. فقط.

4

بعد رافاييل تعرفت على وحدتي أكثر، عشت وقتا من الوجع والوحدة، كنت أستيقظ في منتصف الليل وأبكي بشدة، ولم أكن أعلم ما السبب؟ كل شيء من حولي كان يخنقني، فقدت الكثير من الأشياء التي كنت أرغب فعلا بها، لم أحقق شيئا، ولم أجد بعد نفسي، أصبحت ظروفي أشد تعقيدا مما كانت عليه، لا أقصد المادية طبعا، ولكن النفسية، فكرت في استشارة نفسية، لكني عذلت، وفكرت في السفر من جديد، كانت وجهتي مدينة البيضاء، لم يكن سفري بمحض الصدفة فقد كان بدعوة من ناشري، سأوقع في معرض الكتاب روايتي "ثمرة الصنوبر" ذلك المعرض السنوي الذي يستضيف العديد من الناشرين ليكون الكتاب والكاتب أقرب للقراء، و ها أنا ذا أستعد للتوقيع، أستقبل العديد من باقات الورود، ومن كلمات الحب والإعجاب، لاقت روايتي الأولى نجاحا غير متوقعة البتة.. أسعدتني في تلك اللحظات لكنها سرعان ما تلاشت، كنت مستعجلة في دواخلي لينفلت بي الزمن بعيدا عن هذا الضغط الذي يخنقني، لا أحب الجدران، ولا أحب أن أتظاهر بالسعادة وأنا أختنق، هرولت بعيدا ما إن سنحت لي الفرصة بذلك، تخلصت من هاتفي لأخلو بنفسي، وها أندا

أشتم البحر كم هو هائج غاضب في شهر فبراير شهر الحب الذي يجدني كلما حل موعده وحيدة أجتر الوجع الذي لا أدري له مصدرا ما أدريه أنه ممتد. في طريقي طلب مني فتى أن ألتقط له صورة، لم أهتم لشكله، غير أنه بدا مختلفا وعين الكاميرا تعكسه، له شعر طويل تعلوه ضفائر لا أدري كم من الزمن احتاجه ليربيها، ارتابني شيء من الشك عن كونها مستعارة، جعلته يبدو كأيل ذي قرون ربيعية، فارع الطول، بشرته فاتحه، له عين خضراء والأخرى بنية، كل كلامه باللغة الفرنسية، وإن كان أقرب للإسبانيين في ملامحه لكن فرنسيته التي أكره كلغة في الأصل خالفت ظنوني، أعدت له الكاميرا، لكنه طلب مني صورة برفقته، تكون "سيلفي" استغربت الطلب، لكن دارجته المغربية فاجأتني، وهو يبوح بإعجابه بلون عيوني التي تماثل لون الفسيفساء، ومن الصعب معرفة لونها، رحت أنظر إليه، و قلت لابأس..

كان الفراغ القاتل بداخلي يشلني وكنت بحاجة لمن ينتشلني منه سمحت له بثلاثة صور، ثم غادرت لأجلس على صخور البحر الكبيرة، استمتع بصوت جزره ومده و هو يحدث سيمفونية دافئة بين الحصى و الموج و ها هو يجلس دون إذن مني، يكسر عزلتي و يغير عزف كمان البحر بداخلي، بدأ يتحدث ويتحدث و يتحدث، أخرج من حقيبته دفترا مزينا

بجذع الشجر و الورود المجففة، وكأنه يحمل رزمة من ورق ما عاد مستعملا اليوم، هو الرق، و ما بداخله صوره و فتاة شقراء فاتنة، يقول أنها حبيبته، أو بالأحرى كانت حبيبته، التقى بها في كلية الهندسة بفرنسا، عندما هاجر لمتابعة دراسته، حبهما كان مثاليا، لكن حواجز عدة كانت تقف بينهما، كاثوليكية أبويها و إسلام أبويه.. أشفقت عليه، كونه لم يكن قادرا على تجاوز كل شيء ليكون مع حبيبته، لو كنت مكانه لضربت كل شيء عرض الحائط لأكون مع من أحببت أليست كل الديانات تقود لإله واحد و تهدف لنشر الحب والسلام، غير أنه ولد بار ولم يرد أن يعق والده الفلاح البسيط الذي أنفق عمره ليدرسه ويبعثه لطلب العلم في آخر الدنيا، فيأتيه بغربية تبيح لنفسها كل شيء، لكنها كانت محافظة مثلهم، أسفا كانت التلفاز كافية لتنقل للعالم حقائق غير صائبة عن مجتمعات أخرى...الاعلام فاسد أفسد الكثير عنا، انتهى بنا الحديث إلى ملهى ليلي، وها أندا أرقص بكل جنوني على موسيقى الليل الصاخبة، توقف كل شيء فجأة بدأت استعيد ذكرياتي، و وجدت أني فقدت الإحساس بكل الأبعاد من حولي، بل داخلي، وجدت أني فقدت طعم السعادة والحزن والخوف واللهفة والشوق والاشتياق، والحاجة الماسة للآخر فقدتها

كلها.. بدأ صوت ما يتجه إلي يكاد يقارب الهمس، إنه يغني من أجلي ومن أجل الحب:

-if i have a hummer
I will ring it in the morning
I will ring it in the evening
All over this land
I will ring it for freedom
For justice
All over this land

أحببت الكلمات وصوته يكسوها، وعزفه يحملها على أجنحة الطير،

لو عندي جرس
لقرعته في الصباح
في السماء
في كل الأرض
من أجل الحرية
من أجل العدالة
في كل الأرض

لعلها تغنى في الكنائس حيث تقرع الأجراس، كان القرع مماثلا بالنسبة لي مادام يدعو للمحبة والسلام، أكان قرع طبول في بلدان إفريقية، أو قرع أجراس في معبد بودي، أو كلمات مانترا في بلد هندي، أو آذان بلبل مكي يصدح بصوت السلام في غار حراء كل شيء بداخلي كان يتفاعل بحثا عني، وها أندا أتوقف عن الرقص، بقيت أنظر للفتى ذي العينين المختلفتين، بنية وخضراء، مختلفتين تماما لكنهما بالنهاية عينيه، بالنهاية يبصر بهما الكون، تذكرت الرجل الحكيم، كان كفيفا لكنه كان بصيرا، ينظر أبعد منا.

احتسيت الخمر لأول ليلة، فقدت كل الأبعاد وفي الصباح وجدتني في فراشه.

5

نظام فغر فاه وهو يسمع كل ما أقوله، كيف لي أن أكون هكذا. لم يكن ليراني من الداخل وهذا أمر أساء لي، فأنا أنا في أي مكان أعيش فيه، سواء في بلد محافظ أو بلد متحرر، ما أريده أفعله، وليس علي ارتداء الحجاب لأني في باكستان، وليس علي ارتداء التنورة لأني في ألمانيا. ليس علي أن أكون مدى الحياة لرجل واحد لأني في الهند وأموت حرقا بعده، وليس علي أن أكون لعدد متسلسل من الرجال في بلاد غربية تؤمن بأحقيتي في فعل ما أريد. وليس علي ممارسة السحر لأني مجوسية أو أن أشعل النار وأحوم حولها طوال الليل لكوني من قوم المايا، ولا السهر تحت سماء مليئة بالكواكب لأني أتبع ملة الآلهة فيها نجوم وليس علي أن وأن وأن وأن لأكون ما يريدونه، أنا أبحث عن نفسي فقط، وأومن أن إنسانيتي تسمح لي أن أفعل ما أشاء متى أردت حتى أجدني بين ركام المفقودين أو جنة الأحياء. تماما كما أفعل أمام الورق، أحسست في تلك اللحظة أني لم أكن أمام قس بل أمام رجل شرقي لا يستطيع تقبل اعترافاتي. بل ربما أمام قس يريد مني أن أبتاع صك الغفران لأزيد من رصيده و تغفر بذلك خطاياي، كان من الصعب عليه أن يستمع إلي بعمق، ويفهم غايتي، كل ما فعل عندما خطرت

فكرة ماكرة بذهنه، أن يستغل ما يسميه انحلال خلقيا، لينظر إلي نظرة الرجل إلى الأنثى، جسد جاهز لامرأة متمردة، هناك بدأت أكشفه وكان عكس الرجل على الورق، ربما كان رجلا غيره ذلك الذي وجدت فوق الطاولة، وربما أسأت فهم ما أراد الورق قوله حينها وجدت أن حصة الاعتراف يجب أن تنتهي، بدأت أسحب أغراضي بهدوء، انتشلت معطفي من على الكرسي المجاور لي لألبسه، هو الآخر كان على استعداد ليستجيب لرحيلي.. لست أدري إن كان كل شيء توقف هنا، أم لا يزال! لا أنكر أني أحسست أني أخطأت الظن به فكل ما قام به، هو أنه استجاب لرحيلي ولم يحاول قط استدراجي لغرف الفندق المتواجدة فوق المقهى الذي استضافنا في الدور الثاني لعل الفكرة الماكرة طرقت له في لحظة ما واستطعت أن ألمسها ولكوني لم أستجب استجاب هو لرحيلي. لم أرغب بمرافقته ليوصلني إلى مسكني، كنت أرغب بأن أتحدى الليل والموج والمطر الذي يستعد سحابه للعودة فأشق طريقي، ثم أعود وحيدة للفندق أحجز لي غرفة متواضعة ألبث فيها بضعة أيام، قبل سفري الموالي، غير أنه أصر على أخذي في جولة داخل المدينة ليلا، قال إن المدن تبدوا على حقيقتها ليلا عكس النساء، أحسست حينها مدى رزانته وكم بوده أن يفكر مليا ويرى حقيقتي في ليله الخاص وليس الليل الحقيقي الذي قال

عنه أننا لا نبدو فيه نحن النساء على حقيقتنا ربما لأننا فيه نتساوى.

-تعلمين.

كلما بدأ شخص بهذه الكلمة أفهم أن خبرا جديدا سيضاف لرصيدي عن الذي أرافقه، أو أنه شيء سبقت لي معرفته ولكن لابد من التذكير أو التأكيد. لم أكن فعلا أتوقع أنه سيرفع الستار عن جزء من حياته ليكشفه لي، لأدرك كم أنا مهمة! بدأ هذا الرجل الذي لا يحسب ماضيه ماضيا بل ذكريات يحدثني عن إمكانياته في استقطاب حسناوات من شتى بقاع العالم يدفع مقابل المدة التي ستكون معه، أسبوعا أو أسبوعين أو حتى شهرا. ويمكنه أن يستضيف على فراشه أكثر من حسناء واحدة وقد ينتظر إلى أن تخلص مدتها ليأتي بأخرى، ويصنع له جنته إن كانت الجنة تساوي عنده النساء، وقد سبق له أن فعل، ولكن الأمر بالنسبة له أصبح بغيضا عندما كان يفرغ من شهواته ويبقى مع نفسه. أحس حينها فقط كم من المهم أن يكون للرجل زوجته، امرأة واحدة تكون مصب اهتماماته، يشاركها الفراش والأحلام، ينجب منها الكثير من الأطفال، يفكرون في الغد وكيف سيتشاطران حمل صخرة سيزيف. كان كلامه يلامس اهتمامات أي امرأة ترغب بالاستقرار، ولم أكن قط أفكر في الاستقرار ولا أن أحمل

صخرة سيزيف مع أحد، ركن سيارته جانبا وأكد أنه غير مهتم بكل ما مر من حياتي، الأهم أن نكون معا.

كنت أعلم أنه رجل شرقي ولو أنه تلقى تعليمه بالخارج ويريد أن يعتبرني غربية بحلة عربية ليقنع نفسه باختلاف منهجي في الحياة، كان كاذبا، وكنت أخشى أن يصبح أميرا ليليا يتحول في الصباح الباكر لوحش مرعب، أصبحت أشعر بضيق التنفس بسبب احتكاره ليلتي كل ما أردته أن أعود للفندق وأنام، فقد تعبت أردت أن أتحرر من شبيه زوجي الأول. كلاهما متشابها، وقد أتعبتني نفسي، كانت كل أمنيات أن أعود لوحدتي وأنام.

6

غـادرت في الصـباح البـاكر منـزل الفتى صـاحب العينـين المختلفتين، مصممة على عـدم العـودة، وكان عازما على جعلي أعود، شـدني عالمه المنحل إليه، أكثر منه. انضممت له ولرفاقه المجـانين، شـاردون ضـالون غيـر أن ذكاءهم وعطاءهم العلمي ربما يشـفع لهم، تعرفت على جانب آخر في، عشـق الليل وكم كنت قادرة رغم كل التأثيرات على إخفاء حقيبة ذكرياتي، كنت أرفض أن يحاسبني أحد، قديما كان زوجي يظلم الناس، اليوم أنـا أظلم نفسـي فقـط. ووحـدي لـدي الحـق في معاقبـة نفسـي، ولذلك ما كنت أفعله وأنا أتغير جذريا بتعرفي على الشلة التي أصبحت أنتمي إليها، شلة النار faire boyشكلنا فرقة غنائية متميزة، كنت أكتب لهم الكلمات وألحنها، تعزف الفرقة وأغني إلى جانبهم، كنـا نـدعو إلى السـلام فقـط، أكثـر مـا كنـت أحـب طريقـة لبسـنا، ملابس لا تتبـع الموضـة بل تتبـع الفريق ووحدتـه فقـط، كنت أعشـق سـباق الـدراجات النارية الليلي، كنت أحب حلقتنا التي كنا نشكلها حول النار، قرب البحر، ونحن نعزف ونغني كصـوت واحـد ينطلـق مـن نـاي راع بسـيط. كنـت حينهـا أقيم مع وليد في شـقته، وضعنا حدودا لعلاقتنا، وتزوجنا. بدون علم والديه، وكان كلانا متزنا في عهده بالانفصال إذا ما شكلت

علاقتنا مصر إزعاج للآخر، كنا منسجمين، ما أروع أن يلاقيك القدر بمهندس معماري تخصصه دراسة الفسيفساء، كنت أشبه بقطعة أثرية بالنسبة إليه، استطاع كلانا أن يشفي الآخر من جراح الماضي ومواجعه، رغم أني أكبره بالسنتين، ما كان الفارق ليخلق عائقا، ورغم كل ذلك التفاهم والاحترام الذي ناسق وجمل وجعل سماءنا صافية جعلنا ننتظر تخوف الانفصال، فقد كانت تلك النهاية الطبيعية لزواجنا حسب الاتفاق. تعلمت من وليد الكثير من الأشياء الجميلة، كيف أستمتع بالنجوم وأمارس المانترا، أقوم عند بداية الصباح، تعلمت منه كيف أغني وأعزف وأجعل من اللحن الخيط الذي يلم شتات الكون، تعلمت منه كيف أتوقف كل يوم أمام محكمة نفسي لأحاسبها على أخطاء كثيرة ربما اقترفتها سهوا أو قصدا في حق الآخرين وحق نفسي. علمني وليد الكثير من الأشياء، ولعله كان أهم قنطرة لأمر للجزء الآخر من حياتي، كان غريبا وكان يمتلك قدرات خارقة شدتني إليه أكثر، خصوصا قدراته على رؤية أشياء لا نستطيع نحن البشر العاديون أن نراها أو حتى نؤمن بإمكانية حدوثها خارج حدود القصص والأفلام السنيمائية، كنت غير مضطرة لأن أرتدي ملابس تسترني فقد كانت عيونه المتباينة اللون تستطيع أن تراني، كنا صديقين قوين أكثر من زوجين، كان العقد الذي

وثق لهذه العلاقة صمام أمان من مجتمع منافق من الممكن أن يدمرنا في لحظة وفية جمعتنا باختيار.

انفصلنا عندما أقترب موعد عودته لبلدته، حيث سيستقر بجانب والده الفلاح البسيط، يتزوج فتاة من اختيار أبويه، ينجب منها الكثير من الأبناء كما حلم، ويسمي طفلته الأولى ابتهال، نصحته ألا يفعل كي لا يتذكرني ويظلمها بي، تركته يرحل ليبدأ حياة سعيدة، ولو كنت أحبه لجعلته يبقى إلى جانبي، لم أحبه قط، لكنه كان ضروريا بالنسبة لي في تلك اللحظة التي أحسن القدر إدخاله لحياتي.

عدت من جديد لوحدتي، أمارس فعل التأمل في أدق تفاصيل الظلام. ولم تكن تلك نهاية علاقاتي فقد استمرت إلى أن قررت أن أترك كل شيء عدا نظام وفعل الحياة على الورق بما أنه استطاع أن يتقبلني بجاهليتي، إلى أن ترتفع نسبة الشر في قلبه اتجاهي فيكتب لي انفصال جديد في حياتي.

جئنا إلى هذه الدنيا بمفردنا وسنغادرها بمفردنا.

زوجة ثانية

وما العيب يا سيدي لو عشنا حلاوة الاشاعة، أتركهم يتهموننا كما يشاؤون بعلاقة حب غير مشروعة، بحب بريء، بشيء مريب. لا يهمني ما دمت أنا نفسي في سري أتمنى لو أعيش ما يقولونه، لا أستطيع أن أخفي كمياء الحب التي تتفاعل بداخلي، لا تستطيع أنت بدورك أن تحرق تلك الرواية الطويلة التي خصصت أسطرها لتخليد لحظات لم تكن إلا بيننا نحن، كيف يمكن أن تبرر لقاء السارد بفتاة تشبهني وتتماثل فيها الاحداث و تطالب النقاد بتبني التأويل لفهم العمل الغارق في الوضوح، البطلان يتشاجران كما وقع بيننا نحن الاثنين عندما ساهم في إيقاعها على أرض جليدية سبب الوقوع بعدها كسرا خطيرا في ساقها اليمنى، شيء أوجب عليه أن يحملها معه للمستشفى و يتحمل كل التبعات، حتى كونها تحولت من فتاة عادية و طبيعية لفتاة بعاهة مستديمة ! لن تتقبلها أنت كزوج تماما كما السارد، لكن الذنب ستظل تحمله إذا ما فارقتها، وتنشأ بينكما علاقة قوية تتجاوز علاقة حادثة وعلاقة جسد بعدها، لعلاقة طويلة الأمد. لم نحقق الاتحاد الذي حقق في عملك الروائي لكن من يدري ربما يوما ما تصبح روايتك عملا سير ذاتي سابقا لأوانه فكم من واحد منا كتب قدره بيمينه،

فقط أنت كتبته بشمالك مستعجلا. ساعدنا كل الذين حولنا حتى نكون أكثر شجاعة بما أنهم قالوا مالم نقله، واعترفوا بما لم تعترف أنت به. ما ذنبي أنا إن كانت لك زوجة غيورة، وبينكما طفل يكبر عمره عمر حادثة الجليد. قف على أرضية صلبة حتى لا تقع وتوقع غيرك في حادث أثره طويل الأمد.

وتزوجتني، كنت الثانية في حياتك، غير نساء مررن قبلنا أنا وزوجتك الأولى ونساء بيننا وأخر قد يأتين بعدنا، لا أومن بصدق رجل مزواج. ولا أومن بصدقي أنا التي كنت مغرقة في النسوية حد النخاع، كنت من دعاة منع التعدد، ومن مشجعي استقلال المرأة المادي الذي يهبها الحق في اختيار المصير، لطالما راودني سؤال لا أحسبه إلا مغريا للتاريخ القادم حتى يجيب عنه، ماذا لو استقلت كل النساء ماديا وكان لهن دخلهن وسكنهن الخاص، هل كن سيصبرن على هفوات الأزواج، أو كن ليفضلن استقلالهن وكرامتهن، الحب وحده يذلنا، وإن غاب وغابت معه القوامة هل كانت كل البيوت التي أسفل سقفها أزواج تبقى قائمة ولا تنهار؟

كنت مستقلة مادية، وكنت من دعاة السلام، ومن دعاة تحرير نساء المجتمعات الأبوية، لكن الأن ضربت بكل تاريخي الذي جعلني أعتلي درجة عالية في المجتمع عندما اختلطت مشاعرك بمشاعري، وقبلت أن أكون زوجة ثانية، وأن أظلم

زوجة سبقتني وأتسبب في بكائها، ولو أني كنت قد وهبت فيما سبق حياتي من أجل كل النساء الواقعات تحت سقف الاذلال، أدرك جيدا حجم الذل الذي تتعرض له المرأة إذا ما قبلت بزوجة ثانية، كانت تحبك، وكانت تؤمن بوجوب عدم ترددها إذا ما تعلق الأمر بإمكانية وضعها تحت طائل التهديد "وافقي أو أختارها هي ".

ماذا يملك الرجل اتجاه قلبه إذا ما تمرد عليه، وماذا بيد المرأة لتفعله إذا ما تمرد قلب زوجها ضدها. تمردت ضد نفسي لأكون بينكما!

لماذا قد أرفض الزواج!

هل كنت لتضم بطني وتقيس خصري كل يوم، لو كان وليدنا الأول قادما؟ هل كنت ستستعد لأن تكون أبا، وتتخلص من كل تلك العادات السيئة التي انشق قمر قلبي لتتوب عن كفرك وتلتزم لحياتنا الزوجية؟ أعلم أننا تعاهدنا على أن نؤجل قدوم الأبناء، نحتاج للكثير من المال أولا لنسدد دين المنزل و السيارة الذين ابتعناهما بالتقسيط، سنحتاج مع قدوم الأبناء لمربية صالحة و ليس هناك من مربية أفضل من الأم بنفسها، لذلك ستجبرني على البقاء في المنزل و التخلي عن وظيفتي التي أكسبتني كرامة و قيمة أمامك، و أمام نفسي، و بالمقابل ستزيد من ساعات عملك و هذا يعني خروجك الباكر من المنزل كل يوم وعودتك المتأخرة كل ليلة، و هذا سيجعلني نصف متزوجة و يجعلك نصف أب، ستتخلص من التدخين لأن ميزانيته مرهقة بالنسبة لك و ما تدفعه من عمرك باهظ بالنسبة لي، سيقل أصحابك وتتخلص من ضغط أوراق اليانصيب الخاسرة التي تشكل جزءا من أهم هواياتك. وبالمقابل مع قدوم الأبناء وزيادة الحاجيات سأحتاج لتغيير محلات ملابسي لاقتنائها من سوق الملابس المستعملة، وسأجتهد كثيرا في تنظيفها وتنسيقها مع مستجدات الموضة، سأستعمل عطرا منقولا عن عطري

الـذي لـم أكـن لأتنـازل عنـه قبـل وبعـد زواجنـا، أمـا مجـوهراتي الذهبيـة فسـأحتفظ بهـا فقـد يـأتي يـوم ونضـطر لبيعهـا. الأبنـاء أولى بالرعايـة والمحبـة، كمـا أن مـا كـان حكـرا على جيبي وأنـا أشـتغل سـيكون حكرا على جيبك وأنا ربة بيت. سـيقل اهتمامي بنفسـي فكل الوقـت للمطبخ وللأبنـاء ولـك وبعضـه للتلفـاز، لـن يكون هنـاك وقـت لي. وسـيمضي بنا الـزمن ونجـدنا قـد انفصلنا، تأتي لتأخذ الأبناء كل سبت وتعيدهم لي يوم الأحد، وقد تمضي الأيـام ولا تـأتي، ويعتـاد الأبنـاء غيابك، بشـكل آلي سـتكون امـرأة أكثر شبابا وجمالا وحيوية قد دخلت حياتك، وسـأكون وحيدة عندما يكبر الأبناء وتكون لهم حياتهم الخاصة، سـأتمنى يوما ما لـو أغمـض عيني وألا أفتحهما أبدا. لا تنس حينها أن تصلي لأجل الأبناء.

تفهم الآن لماذا أرفض الزواج!

قضية شبه

اصطحبت ابنتي زوجي للمدرسة هذا الصباح، أي ابنتي. فقد كنت سببا في كسر أواصر علاقة زوجية بسبب زيغ عاطفي، أحببنا بعضنا من لقاء خاطف بين طبيب ومريضته، نزلة زكام حادة غيرت مسار حياتنا. معا. لم أتوقع يوما أن أكون سببا في تدمير بيت لكني نجحت في إعادة بنائه وإنقاذ حياة زوج وبنتين، زوجته أو بالأحرى طليقة زوجي الأولى كانت تهتم بعملها وصديقاتها وزينتها أكثر من أي شيء آخر. تركت هوة العلاقة الزوجية تتسع وتنزح نحو الفراق. أي نعم كان هو الآخر ولا يزال يهتم بأسفاره وندواته ومرضاه أكثر من أسرته الصغيرة، لكني كنت قادرة على إعادة ذلك التوازن الذي قد لا تستطيعه زوجة أنانية ونكدية! كنت قادرة على نقل مرسمي بلوحاته وألوانه وريشاته المختلفة الأحجام إلى بيتنا الجديد، فقد رفضت أن أمشي على خطى امرأة سبقتني إلى تأسيس هذا الحلم الجميل، أطبخ وأنظف وأهتم بالبنات، ولي من زوجي نهاية الأسبوع ووقت مسروق، نقضيه استماعا لموسيقى باخ، وريتشارد كلايدر مان، نسافر نحو البحر والجبال، نجابه الموج بزورقنا الصغير، يحتضنني كما يحتضن الليل ما تبقى من نهار، نمسك معا بالسكين ونقطع الخضار، نعد المرق بالدجاج

وفي المساء نعد كعكة الميلاد، يهديني حياة لم أكن فيها، وأهديه حياة هو كل ما فيها.

وإذ بلغنا قصدنا ودعت البنتين ورحت أتجول المدينة مشيا على الأقدام، لوحدي أتعرف على ملامحها الباهتة، وتلك الوجوه الحزينة التي يكسوها الفخر لوطنيتها، ويعريها الحزن لضيق ذات اليد وعسر الحال، سيدة لم يغط البؤس جمالها ربما في ربيعها الثلاثين تحتضن طفلا وتفترش الأرض، تنتظر من يجود عليها برزق يومها، طلاب الجامعة القاطنون بالأحياء الجامعية يحتضنهم "باص" وحيد الكل واقف وليس له إلا المكان الذي يطأ عليه، يرددون شعارات سنوات الرصاص والدم، غضب وابتسامة وفخر. وسائق الباص السيد حسن يبتسم دون أن يكشف شاربه الكث عما يخفيه من وجع الأيام. رجل لا يمكن أن تفرق جنونه من سكره، ينفخ من نفسه في حقيبة بلاستيكية لعله يغيب غيابات متكررة عن هذا العالم الموبوء بالنسبة له. وإذ تمطر تمر سيارة فارهة لا تعرف للبرد لونا تبلل ملابس المارة بشذرات المياه التي كانت تشكل على شارع مليء بالحفر شبه برك متفاوتة الأحجام. تختنق الشوارع بالمطر المتراكم، يجري الناس في عجلة، تحتضن السيدة الشابة طفلها خوفا من المطر. يبث المذياع أخبارا روتينية، عن الوقفات والمظاهرات المنددة ضد الحكرة والاحتقار، مسيرة

أشعلها محسن فكري فتى الحسيمة الذي اعتصرته حاوية أزبال. وتوقفت!

مررت بجانب مدرسة عمومية، وتكرر المشهد مع أغلب المدارس التي مررت بها في طريقي، ترتكن قربها الأزبال، وبجانبها يوجد موقف للسيارات، وأمام باب المدرسة بائعو حلويات، ليس كالذين عهدناهم، رجالا كبارا أو شبابا أو حتى أطفالا يسعون لكسب قوتهم بالحلال، بل مروجون لكل أنواع "البلية"، إهمال باد للمسؤولين للمدرسة التي أخذوا عنها ومنها العلم والمعرفة، لم يعد هناك من شيء يغري في هذه المدينة.

رن هاتفي، يقول زوجي أنه لن يعود لتناول الغذاء في البيت، واجبه يقتضي ذلك. وحالتي النفسية ذاتها لم تكن مستعدة لإعداد وجبة غذاء تليق بيومه المرهق. اخترت لي ركنا في مقهى، طلبت الجريدة ورحت أتصفح الأخبار والأبراج وضعتها جانبا. ولم أجد أفضل من تصفح وجوه المارة، فإذا بعيوني تلتقط مشهد رجل يشبه زوجي كثيرا يمسك بيد شابة شقراء، راسما لها ألوان السعادة قبل أن يستقبلهما النادل الذي استقبلني لأخذ مكان يليق بهاء اللقاء، دفعت الحساب وعدت للبيت موهمة نفسي أن القضية قضية شبه!

أحيانا قد نحترق دون أن نقترب.

كلما رأيته تسارعت دقات قلبي، يتصاعد الدم لوجنتي، من حسن حظي أني سمراء، وإلا لكانت ألوان الوله تفضحني، ليس بيدي ما يحدث بداخلي. قررت أن أخبره، وفليكن ما يكون، أعلم أنه متزوج وأب لأربعة أبناء أصغرهم يُدَرس في جامعة فرنسية، وأنه وفيٌ لزوجة نكدية، وأنه يحترم نفسه ومهنة الطب التي درسنا، كنت إحدى طالباته المجدات، كان يقدر لي هذا، ويرى في طبيبة جراحة لها مستقبل باهر، ونجاحات ستحققها وهي تخيط قلوبا تصارع الموت، يحييها الفريق بعد نجاح العملية، وتنهال عليها أسر المريض بالقبل، والمريض ذاته سيظل يذكرها لحسنها ولطيبتها. وقد يقع في حبها ولا ينساها وهي تزوره قبل انتهاء دوامها الليلي، ما أجمل الليالي التي تداوم فيها طبيبة أو ممرضة جميلة! هذا ما قاله أحد المرضى وكان يبتسم ويقول "هي ابنتنا" لكن من قال له أني ابنته؟ أنا التي ترى فيه حبيبها، والرجل المثالي الذي لم تصادفه يوما في صور كل الرجال الذي يقربون لها قرابة الدم. رجل يعادل كل ما قرأته في المخطوطات القديمة عن ابن سينا والفارابي، طبيب وفيلسوف وشاعر، وله علم يسير بالفلك، دعاني مرة لنشاهد حركة النجوم والكواكب، على سطح المستشفى، أدرك

قلبي حينها حاجته الشديدة لأن يكون نجما في السماء يحتاج لأن يرصده منظار هذا الطبيب. لأول مرة تلتقي عيوننا، ويحجبه القمر عني، ذرفت الدمع على يديه، وطلبت أن يساعدني لأغادر المستشفى، فما عاد قلبي يحتمل، ولا عاد قلبه يحتمل، ألغينا المسافات وأبعدنا احتيال اللغة، وثقافة تُعلم الكذب وكتمان المشاعر، ربما أكون امرأة متحررة كما يصفني أصدقائي أنا التي أراني حرة لا متحررة، ربما لأن أمي برازيلية لا تؤمن بالتعقيدات، أشبهها، عكس والدي المغربي، يضع ألف حاجز أمامه كي لا تطاله ألسنة الناس. كثيرا ما انتقدني ورد تصرفاتي لزواجه الفاشل، لا يحب ملابسي القصيرة والبسيطة، ولا تصفيفة شعري الذكورية، ولا الأقراط الستة التي تزين أذني، ولا انفتاحي. الناس نصحوه بمغادرة المهجر والإقبال على أحضان الوطن الممتد، كي لا تفسد تربية أبنائه، لكن فعلا انحرفت، هذا ما يؤكده الكل! لكن لم يلحظ أحد وأني طبيبة متدربة أنقذت الكثيرين من الموت، أني أشرفت على عمليات معقدة ونجحت، وأني أنشأت جمعية من الأطباء المتطوعين نسافر باستمرار لننقد الحياة السليمة لأناس يصارعون الموت في بيوتهم، وأني بعت سيارتي ودفعت أمي لأخذ قرض لننقذ حياة طفل في الرابعة من عمره، وأني دائمة التبرع بدمي لمن فقدوه بسبب مشاريعهم الفاشلة. أشياء

لا يجدر بي قولها إلا أمام نفسي لأقول لها بأن من حقها ألا تكترث لأحد، ومن حق هذا القلب الذي أحب الكل أن يحبه هذا الرجل، ونحن على سطح المستشفى رصد بمنظاره دقات قلبي، حاولت أن أتهرب من كل الأسئلة التي قد تطرح بعد "اعتراف": كيف حصل؟ ولم أنا وليس غيري؟ لكن...؟ لم يكن غبيا كأي آخر قد يحيط الحب العميق أكثر من محيط ب: wh questions . أخرجت حينها سيجارة من جيب قميصي الداخلي حاولت أن أشعلها، يدي ترتجف بقوة فاضحة، لكنه كان ثابتا، يراقب حركة النجوم في السماء، يستنشق دخان سيجارتي، ينظر إلي من حين لآخر، ليكسر صمت العناق السابق الذي لذنا إليه: -تعلمين أني معجب بك، وأنك غطيت فشل زواجي.

فشل في الحياة

بعد حصولي على الماجستير فقدته، بعد فشلي في الحصول على وظيفة أيقنت أنه لن يعود فقررت الزواج. قررت أن أهاجر هذا الوطن الذي سبب لي الكثير من الوجع، لا بأس لو تركت أبي الذي شقي لأجلي كثيرا حمل على كتفيه صناديق السمك وباع للمارة عرق جبينه، وأحضر البقية لأمي، تشويه على الجمر، وتبكي. ما استطاعت توفيره هذا اليوم من عملها وعمل والدي لن يكفي لدفع تكاليف الكتب المدرسية التي سيحتاج إخوتي الثلاثة. لذلك تزوجت. فقد وعد زوجي أن يتكفل بعائلتي شريطة أن أرتدي الخمار وألا أعمل. عجلة الوظيفة في وطني أصلا متوقفة. من يدري ربما تتحرك ويناسب الحظ إخوتي. أمي تتمنى لو تراهم ببدل عسكرية، هكذا لن تصرف على دراستهم بالجامعة، وهكذا سيحمونها ووالدي والوطن من نوائب الدهر. لكن حتى ذلك العهد لا بد أن أكون قارب النجاة. حبيبي السابق كان بدون عمل عندما التقينا، شغل الكثير من الأعمال الشريفة رغم أنها لا تليق بإجازته التي حصل عليها قبل خمس سنوات، عمل نادلا بمقهى، ثم نادلا في محل لإعداد الوجبات السريعة، توقف مدة يسيرة عن العمل عندما بدا له أمل للحصول على تأشيرة لتركيا بها سيضمن المرور للنصف

الآخر من هذه الكرة الزرقاء. كنت أشعر أنه فور تخطي الحدود أول ما سيفعله، سيزيل جلد وطنه بما فيه أثر ذكرياتي. لكن الرجل الذي كان يعول عليه ليساعده كان مجرد نصاب يسرق الأحلام ويريق ترياقها في المحيط. سرقه كما سرق هو أحلامي. في تلك الفترة انتقل من مدينة فاس للبحث عن عمل بمدينة طنجة. كانت مدينة الملاهي تلك قد فصلتنا. لم يكن انفصالا فجائيا فقد كنت أتوقعه. تعرف على شريكة جديدة، لطالما أوهمني أنه في انشغالاته مع عمله الجديد والمؤقت في دار النشر "زوربا" لا ينساني. أشغل باله وأحلامه، يشتاق لي كما أشتاق له، لم يكن من السهل عليه أن يكذب علي، ويوهمني فكل شيء فيه تغير، وهكذا اتسع الشرخ بيننا وقررت أن أتزوج، ليس لأجل إخوتي لكن لأنتقم مني!

التقاط الشهب

كنا نحب التقاط الشهب من السماء، كنا نحب أن ننتظر رحيل القمر ونحن نتبعه بأحلى التمنيات، كنا نحب أن نحصي الخالات التي تزين جسدينا، وغالبا ما نختم لياليا الممنوعة بتحول جسدينا لجسد واحد غارق في الانسجام، كان من الصعب على عاطل وطالبة الفوز بشقة فارغة، صديقه الذي يقيم في البرازيل كان يترك له الشقة، وكنا نلتقي في العطل لنشفي غليل الشغف الذي يطوقنا، كانت علاقتنا ضربا من الجنون اجتمع فيه صنوان امرأة ورجل عاشقان. كنت رغم ذلك أحاول الحفاظ على عذريتي، كنت حريصة ولم يكن مكترثا، يقول بالنهاية سنتزوج، في إحدى لقاءاتنا وبعد علاقة فقدت خلالها التركيز على رسالتي "الحفاظ على بكارتي" والاستمتاع بجنون هذا الحب، نزفت دما، التقط السرير بعضا منه، ونزفت الباقي في دورة المياه. بكيت بشدة ذلك المساء، ولم يحاول حتى ضمني وطمأنني يومها، كل ما كان يسعى لفعله، أن يتخلص من ثقل اللحظة، لم أغراضنا، ساعدني على ترتيب نفسي، كان خوفه من الفضيحة ومن الجيران أن يسمعوا شيئا من صراخي كبيرا وواضحا في تصرفاته وكلامه. قال لي:

-ضحك عليك شيء حد وبغيتي تلصقيها فيا.

غريب أمره أنا بين يديه وكل شيء كان شاهدا على لحظتنا ومع ذلك انسل من تحمل مسؤوليته، قد يصعب تصديق هكذا أمر في قرننا الواحد والعشرين، لكنه كان فعلا! بعد خروجنا من الشقة، اشتد النزاع بيننا، دفعني دفعته، ألقينا معا بي خارج العالم، ليهوي جسدي من الطابق السابع حتى الأرض، ملأت الدماء شارعا كان يطوقنا معا! عندما كان جسدي يهوي من الأعلى نحو مركز الأرض العميق كان يمر أمامي شريط طويل اسمه حياتي، كنت أتذكر فرحة والدي بي وأنا أخطو خطواتي الأولى نحو المدرسة، وأمي تعد لي وجبتي بحب، وتسبقني للباب كي تودعني. عندما كنت أمرض كيف كانا يمرضان قبل مرضي، ويمسحان وجعي. كان طيف أبي يقف أمامي محاسبا معاتبا لم يكن بيدي أن أطلب المغفرة منه، ولا من أحد، كنت أطلب النجاة لي فقط عندما أقترب الموت ليسكتني!

المستنسخة "ب 2"

ظهرت سيدة تدعي أنها أنا؟ شبهها المطابق لي سمح لها بذلك، عيونها آسيوية سوداء، بشرتها الحنطية الناعمة، شعرها طويل و ناعم كليالي الشتاء الحالكة، مشيتها المتأنية، أصابعها الدقيقة بشرتها، طولها المعتدل، خصرها النحيف، حقيبة الكتب التي ترافقها كما ظلت ترافقني حتى زواجي وإنجابي، كلها أشياء تميزني و تمتلكها هي، وحده عقد زواجي لا تمتلكه هذه اللعينة، استغلت فرصة سفري لمؤتمر بباريس لتأخذ مكاني، استمالت زوجي حتى ظل يتساءل عن سبب تغيري المفاجئ، أصبحت أكثر هدوءا واتزانا، غابت عصبتي، ولم أعد أقارن بينه وبين طليقي السابق، وألعن لحظة ارتباطي به، انتهت الحرب الأهلية التي تنشب غالبا بيننا، فكل خلافاتنا وعيوبنا نرجعها لعرقينا، أصبحت شبيهتي تحسن صورتي أمام الأقارب الذين يحبون المجاملات والعزائم الفاخرة والهدايا المستوردة، عندما اكتشفت الأمر، حزنت ! فقد خانتني المستنسخة "ب 2" خرجت دون إذني من مختبري الخاص، قضيت عمري وأنا أجهزها لتمسح دمعة أمي عندما تنطفئ شمعتي الأخيرة.

المذكرة الممنوعة

عندما بلغت الثالثة عشر من عمري، قررت أن أقتني دفترا أدون فيه يومياتي، وأسعى لأكون صريحة، وجريئة. بدأت أتعرف على جسدي من خلال الكتابة، وكنت مولعة بوصف التغير الحاصل فيه، لم أكن أستحي من صنع مجسمات تشبهني، وتصويرها وإلصاقها على هوامش الدفتر، وأشرع بتحريره، كنت أتساءل كثيرا عن التهديد الذي قد يشكله جسد بشري انطلاقا من مفاتن أنثى وانتهاء بذكاء يخطط لصنع متفجرات تنهي الوجود حبا في السيطرة وفرض القوة، كنت أكتشف رويدا رويدا أن العالم لعبة كبيرة، وحقيقية، تقف على العوارض الثلاثة: الجنس والدين و السياسة/السلطة، وكنت أحاول كشف أسرار كل واحدة على حدا، فبدأت بالجنس، وأنا أضع الحدود البيولوجية بين الذكور و الإناث، ثم انتقلت للدين عندما حِضت لأول مرة، ووقع علي التكليف، ..وعندما فهمت الكون انطلاقا منه أصبحت أبحث في السياسة أكثر.. كان ليومياتي عشاق يختلسونها من درجي الخاص ليبحثوا عن اسم مذكر أتهم به، أخي الأكبر كان يفعل، كنت أرضي غروره والأسماء تتوالى و السياج كان يطوق حول رقبتي أكثر، فرحت كثيرا عندما هاجر الوطن ليشتغل في دول

الـنفط، فرحـت فقـد نلـت حريتي وأصـبح مـن حقي أن أكتـب بجرأة أكبـر، وبأن أخطئ ككل البشـر، لـو بقي بجانبي لقتلته و تعلمت من الغربان كيف تخفي الجثث، كان يقتلني كلما منعني مـن الالتحـاق بسـبيل يرضـيني، كنـت أحـب منـذ سـني المبكـرة أصـعب وأخطـر الرياضـات، ركـوب الأمـواج، تسـلق الجبـال، ركوب الفرس والقفز على الحواجز، الجمباز، الجري السريع، وكل الرياضات التي قد لا تجعل جسدي جسد أنثى، فنحافتي أصحبت متعبة لأمي، وتماسك كل أعضائي متعب لمن يخطط لمسألة تزويجي، كانت أمي تخاف كثيرا من أن أفقد عذريتي، بسبب عدم اكتراثي وأنا أحمل الأثقال وأحصد الجوائز لهذا البلد العزيز، فأي رياضة أمارسها من الممكن أن تؤذيني ... لم أكن أكترث، ولم أفكر في فكرة الزواج، لكن فكرت في أن أصبح أما بأي طريقة كانت، ولم تكن هناك سبل غير الزواج لتحقيق ذلك، أصبحت أقيد نفسي بتلك الأشياء التي كانت أمي تزرعها في، ربما أكون فعلا قد فقدت عذريتي بسبب إحدى الرياضات الخطيرة التي كنت أمارس، لم أقم قط علاقة تمس حدود جسـدي، لكـن الخـوف كـان يجعـل كـل الكـوابيس المرعبـة تتعقبني، تلك الكوابيس التي كنت أتعلم من أجل مصارعتها كل الفنون القتالية لأحمي نفسي منها كانت تتلاشى.. رويدا رويدا، لـذلك فكـرت في الارتبـاط برجـل تخطى فكـره فكـر الرجـل

الشرقي، فكان مدربي الجديد رودولفو هو زوجي، كان متفهما وكانت تخوفاتي مجرد أوهام زرعتها والدتي التي رفضت في البدء هذا الارتباط ربما زوجي صنفني في خانة الفتيات ذوات العقد النفسية كوني حافظت على نفسي له، كان صراع الحضارات قائما بيننا بوضوح، لكن رياضة الاكتشاف كانت تجعل كل شيء جميلا.

رودولفو يقدر اختياراتي ووحده علمني كيف أعتكف في خلوتي لأسامح كل الخصوم الذين صارعتهم وآذوني كي أحرز الفوز والمزيد من الميداليات والجوائز المالية التي كنا سويا ننفقها على دعم المشاريع التي تحمي نسبة مهما كانت ضئيلة من الشباب من داء البطالة، وفك عزلة رهيبة عن فقراء يصارعون خلف جبال تلتحف الطرقات إليها رداء الثلوج. لم أكن أعلم أن رودولفو وجدني صيدا سهلا ليستقطب عددا يسيرا من الشباب ليحدثهم عن دينه الذي لم أكن أعلم به، فهو أحد شهود ياهوه، يعمل في الخفاء ليزلزل معتقداتي الثابتة، كنت مسالمة ولم يهمني قط انتماؤه الديني بقدر ما كان يهمني ونحن ننفصل أن أنجب ابنا سيمنعني سنيا طويلة من ركوب الأمواج وعبور القارات على دراجة هوائية. لكن كان مهما بالنسبة لي أن أصبح أما تماثل الكونكرو وهي تحمل وليدها في

جيب أمامي، كانت تلك هي دعوتي الحرة ليكون لي امتداد في مذكرات قد يكون ابني يوما ما عليها أول المحاسبين.

هندسة الأطفال

أصبح من السهل أن تختار شكل الطفل الذي تريده، علم هندسة الأطفال يمكنك من إنجاب طفل بعيون أسوية زرقاء، وبشعر هندي ذي لون أشقر، وبطول روماني وبشرة إسبانية، كما أن تزويج المواطنات الغربيات من أبناء الشرق النوابغ يمكن من الحصول على عرق ذكي يضمن شعبا مختارا كضباط الصف بطول واحد و بلياقة بدنية عالية ، لا يمكن أن يجرموا ولا يمكن أن يحققوا لأوطانهم سوى البلاء الحسن، فكرت وزوجي أن نقدم على هندسة طفلنا، ونضمن بذلك طفلا يكون مثاليا، يشبه العالم الذي من حولنا، ... لم نستطع أن نسيطر على دماغه رغم أننا سيطرنا على شكله البيولوجي، لم نستطع أن نوقف ذكاءه المتقد وحماسه الجنوني، وسعيه لامتلاك العالم الذي ننتمي إليه جميعنا، لم تستطع هندسة الأطفال أن تتابع دورها عندما لمع في عيونه بريق حق الامتلاك.

الوهم

أحيانا قد نتوهم بأن هناك من يفرح لفرحنا، ويحزن لحزننا، يعيشنا كما نعيش أنفسنا، نتوهم فيه الحب والاتحاد. لكن لا اتحاد يشبه اتحاد نبتتي الصبار وفيتونيا. ترفع الرياح الستار، وأشعر بيدك تسحبني من على الورق، أشعر بحضنك يضمني، أشعر بصوتك يهمس في أذني، أشعر بأشياء جميلة لا يعقل أن تصدق. أشعر بك وأسترجع الذكرى عندما كنا سوية نجلس على نفس الكرسي، تنتقد ضآلة جسدي، وأنتقد حجم الكرسي. ونشرع في الحديث الذي يقود لطريق مسدود بيننا، نحاول تغيير الموضوع تفاديا لخلاف جديد، فنجعل الوطن بيننا، نتحدث عن كل البلبلة التي تحدث فيه، نخشى أن يقع خلاف بيننا وبين الوطن، فنغير الحديث عنه، لنتحدث عن برنامج سفرنا، واحد يحب الساحل ويعشق ركوب الأمواج، والآخر يهوى الجبال ويجري وراء بلوغ القمم. نختلف من جديد، ونخشى من قرار الاستقلال. والمضي كبوهيميين فارقتهما نزعة الفردانية وحق الرحيل. نتحدث عن وجبة الغذاء، في أي مطعم يمكن أن نتناولها، يصر على أن أطبخ له، وأصر على أن نتناول غذاءنا في مطعم شعبي صيني بعيد. هو نباتي وأنا لست كذلك، أحب السمك وأعشق اللحم المشوي.

ومختلف السلطات، لكن هو يكتفي بالسلطات وحدها يريد لأصابعي أن تختلط بالتوابل وبخصلات شعري أن تتفادى السقوط في الطعام، يحب أن يراني أنازع لأطبخ. لا أحب المطبخ كثيرا، لكن لأجله تخلصت من كل عاداتي المحببة، أصبحت أطبخ في المنزل، ونقضي عطلنا في الساحل، ولا نتحدث عن الوطن كثيرا أكتفي به وطنا لي. تكسرت أظافري وازداد وزني. كنت أسعى لأجعل شكلي يماثل المرأة المثالية في ذهنه، أصبحت أرتدي الحجاب، ولا أناقش في كل الأشياء التي قد تجعلني أقوى منه فكريا، أصبحت حواراتنا مقتصرة على تغيير أثاث البيت، الضيوف القادمين من فرنسا وهولندا وإيطاليا، عمله يستوجب استضافة الكثير من الكتاب والصحفيين في البيت. تخليت عن حقي في الكتابة، حقي في الحياة، فمن الصعب أن يعيش تحت سقف واحد كاتبان. إما هو وإما أنا، ولتظل صورته الأفضل أمام أهلي الذين عارضوا زواجنا آثرت أن أعطيه كل المجد الذي كنت ذات يوم أسعى إليه. كان يكبر ويزداد عظمة، وكنت أتضاءل كالشمعة التي تنير له الطريق. ليمضي ويتركني وحيدة ليس مني إلا ما بقي عالقا في البيت من عطر. بدأت خلافاتنا بسبب شكلي الذي لا يرضيه أن أبرز به أمام الإعلام، هو كان يريدني هكذا، وعندما تخليت عن قناعاتي وعن عنادي ما عاد يجد فيما يثير، أفضل ما جنيته من هذا الزواج ثلاثة

أطفال يشبهون الحب الذي كان ذات يوم يجمعنا، والذي اندثر عندما وجدت في ذاكرة هاتفه المحمول صورته مع غريبة يضمها كما كان يضمني عندما كنا للحب لصوصا، وكان مجرد برعم في بداية الطريق....

من قال إن الدمى لا تبكي؟

قد تنظر للكحل الأسود في عيني ويبدو لك الفرح ببريقه نيازك كنا ذات يوم نمتطيها، الحزن يشلني، لكنك لن تجعل الدمع من جديد يخلط اللون الزهري على خدي، سأعيش حياتي بكل ما في الأمواج العاتية من قوة، وسترى أحمر الشفاه ينتقم من غيرتك ومن جبروتك. وستحاول الانتقام مني، بإغواء كل أنثى تصادفها أو تتفرس فيها إثارة جنوني، لكن لن أهتم ولن أوقظ تلك الذكريات البريئة التي احتفظت بها ذات يوم لأسترجعها ساعات غضبي منك، كي أسامحك، وأحن للاعتذار عن أخطاء لم أفعلها، وأذرف الدمع على الخد الشاحب، من طول ليال السهر والسهاد. قد يلومني البعض كوني أدون رسائل حب والعالم يموج في صراعات عظيمة تمس أمن البلاد ووحدته، من قال إن الحب لا ينتمي لوحدة البلاد؟ أن يعلن 'سارق الحب' انتماءه لأنثى غير التي وهبته دولاب العمر بكل ما يحمله من أسرار قبعة الساحر. أليست خيانة عظمى ومساسا بكل مقدس. لكن الوطن أنزه من حب رجل خائن، الوطن أقوى وأعمق من أن يمثل بتمثيلية رجل طاعن في الغدر. من يخون حبيبته يخون وطنه.

ابتغيت سبلا كثيرة كي أكرهك، ورحت ألم شتات كل الجراح بداخلي، فوجدتني أبني مملكة مظلمة ما حسبت يوما أن لبناتها كانت هداياك، الورد الأحمر في يدي أصبح شوكا، العطر الذي بللت به جيدي أصبح سما ينفذ لمسامي، كتبك الموقعة بحبر أزرق داكن أصبحت أراه لونا للدم والثورة. بطاقات المدن التي زرتها ووقعتها من أجلي. والخاتم الذي انتظرت أن تحضره لي بعدما علمت أن خنصرك يساوي بنصري. ولم تخرجه ولا مرة من حقيبة سفرك. وأنت تقطع كما أنا الكيلومترات لتضمني. والمحطات، لعنتها لا تزال في غيابك تلاحقني، ما عادت هناك مواعيد جديدة لتجمعنا، ولا مقاهي شعبية لتستهوينا، ولا بحر يضمنا، ولا بيت ندخر مصروفه من عرق جبيننا لنكون فيه معا، وعودك أتلفت كورودك! صادقة أتساءل هل نسيت أم تناسيت الوعد الذي ضمت فيه كفك كفي، كتمثال منحوت ممجد. أعقبته تراتيل العهد "أن نكون لبعضنا/ونموت مع بعضنا/ويضمنا قبر واحد/ونحاسب حسابا واحدا/."

أشياء جميلة

أقلب أوراق المجلات الناعمة بين يدي، أخجل كثيرا من شكل أظافري غير المقلمة بشكل أنيق، تشبه كثيرا أصابع ذكورية، لطبيب يهتم لنظافتها فقط، تبدو لامعة، لكنها لا تشبه بتاتا أظافر أنثى، تفكر في ترك أثر على ظهرك أثناء علاقة حميمية، تشبه قطة وهي تمارس كل الحياة معك، راقتني أناقة النساء اللواتي في المجلة يضعن طلاء يماثل لونه لون أحمر شفاههن، والحقيبة، وربما حمالات الصدر الداخلية، يحببن أن يبدون منسجمات مع حقول الورد في كل شيء، في آخر لحظة، أحببت أن أطرح سؤالي عليك، لم أحببتني بكل تفاصيلي الغابوية المتشعبة في جذور الأشجار، أحببتني بلوني الشاحب، بشعري المتناثر، بملابسي الغير مرتبة، بلون الكحل الأزرق البارز في عيني، بصوتي الذي يغني لك، إذا ما أظلم الليل وسكنت إلي،...تحبني لثرثرتي التي تغزو التاريخ و علم الاجتماع، وكل الشؤون السياسية، تحب أن أبدو بمستوى كل رجال المقاهي وهم يتصفحون الجرائد و ينتقدون الواقع، تحبني كالمكتبات المليئة بهذا الكون.. تحب ما أردده من خطب القادة وأكاذيبهم، تحبني وأنا أنزع حذائي وأنتعل الأرض لألقي قصائدي على سمائك. تحبني وتعشق احتجازي، ووضع صوتي

في قنينة لا يتجرع منها غيرك. أناني أنت وأنت تمنعني من أن أقبل كتابا غيرك، ذلك الكتاب الذي علمني كيف أجعلك تحبني الباقي من العمر، عيوني الناعسة لك، قلبي المرح لك، صمتي لك وحدك، وحدك تدركه كما أدرك قول تلك العيون التي تغمضها كلما رغبت في أن تستعيد ملامحي. كيف هي عيوني الواسعة، وكيف هي رموشي الشقراء، كيف شفتي لا تنفك تردد معلومات كثيرة عن خريطة العالم وأسماء عواصم الدول، وعملاتها، أحفظها عن ظهر قلب، وأحفظ كيف تلقى التحيات بلغات كثيرة، وكيف يمكن أن أطلب الطعام، وشقة للإيجار، وكيف يمكن أن أصل لمحطة القطار، وكيف يمكنني أن أزور أشهر المتاحف والحدائق، وأي طريق يؤدي لقمم الجبال. لأني حلمت كثير بأن أحمل حقيبة على ظهري وخريطة في يدي اليمنى ويدي اليسرى تمسك يدك في عناق. أن أقبل الكثيرة من الأطفال بسحناتهم المختلفة، وأغني لهم، ليس كما أغني لك، لكن كيف يجب أن يعم السلام الأرض. أعلمهم كيف تحاك الزرابي بألوان قوز قزح، كي يذكروني، ترى كيف ستذكرني عندما ينتهي هذا الحلم، ويطير كبساط خيالي عجيب. أحبك.

مجرمة بالتسلس

مـن المفتـرض أن نخلـص لمبادئنـا، ألا نقـدم على أشـياء تجعلنا من المحاسبين المعاتبين للذات، لكن أحيانا نجبر على اقتراف جرائم أكبر منا، تماما كجرائم الساسة، لا أعتقد أن رئيس دولة قرر منذ اعتلائه عرش الرئاسة أن يصبح مجرما، ولا لصا؟ غير أنه يكتسب الأمر باحتراف الراشدين. فما قد يشكل اليوم حراما بالنسبة له سيصبح غدا حقا مشروعا. تكبر الجرائم وتتوالى حتى يسقط في شرك الطغاة، ربما لئلا أحد نهاه، وكل عصي البلاد تقف في صفه فيحسب نفسه حقا إلها، فيتدخل في قطع أرزاق الناس. أصبحت أشبههم كثيرا، فقد اقترفت بالأمس أول جريمة بشعة، قتلت رجلا أحدب، كان يترصدني. ويسأل عني، لم ترحني نظراته الباحثة عني في أسواق المدينة، رأيته من بعيد عندما شاركتني أختي قلق ترصده لي، سألتني عن سبب ترصده لي؟ لم أجد جوابا، قلت لعله قلب رجل تعلق بي في حياة سابقة ولم أنصفه، أو ربما واحد من رعية البلاد التي لطالما راودتني في أحلامي أني ملكتها وقد تسببت في أديته أو أدية أحد من أعز أقربائه، كانت عيونه تحمل الكثير من الحقد! أخيرا أدركني أنا أطول منه بقليل، يرتدي جلبابا رمادي اللون، عينه اليمنى فيها حول، رفع

الخنجر إلى الأعلى محاولا توجيه ضربة لعاتقي، لا أدري كيف احتدم الصراع بيننا حتى وجدتني قد قتلته. لم يكن هناك من مجال للتفكير، هو في بيتي. بسرعة أخفيت وأختي جثته أسفل أرضية منزلنا، حفرنا له قبرا محترما وأعدنا التراب وسوينا الزليج على شاكلته الأولى، وكي لا يتمكن من الخروج ويستيقظ من جديد غيرت مكان مكتبة كتبي فوق مقبرته، هكذا أكون قد قبرته باحترام، منذ تلك الليلة وأنا أحلم به، وأراه، حاولت مرارا أن أتذكر في أي حياة عرفته أو صادفته، فكرت في كل الاحتمالات إلا في لماذا قتلته؟ لازلت مستعدة لفعل ذلك من جديد لو أعيد مشهد رفعه الخنجر باتجاهي. حتى لو أصبحت مجرمة بالتسلسل وكررت قتله في كل حياة أولد فيها. لم أكن مثالية لدرجة إعطائه هذا الاهتمام حتى يشفي غليله على حساب مثاليتي. لم أكن نبية لهذا الحد. ما أنا إلا سياسية منتخبة كل من حاول الترصد بمركزي أقلته وأدفنه أسفل مكتب عملي! تماما كما تقبر أصوات الشعب المصوتة لمنتخبين موسميين.

أيام عصيبة

كان والدي يرسلني بعد منتصف الليل لأبحث له عن السجائر بعدما توصد كل الدكاكين أبوابها، وإن تعذر علي ذلك يكون ظهري غرامة فشلي في حصدها. كنت حمارا ولعل الحمار كان أكثر مني ذكاء. لم يكن حينها أخي صلاح ليفارقني غالبا ما أحمله على ظهري، ثم أشق طريقي لأملأ قارورات الزيت الفارغة التي تصل عبواتها الخمسة لتترات، أكرر الذهاب والعودة مرارا وتكرارا حتى أوفر ما سيكفينا من الماء للشرب والطبخ والتنظيف، أما عما قد نحتاجه للخلاء فقد كان الخلاء نفسه ملاذنا صيفا وشتاء. أذكر أن أخي الأصغر أفرغ مثانته في مكان فرش برماد أُحضر من المسجد، فقد قيل إنه يلحق أضرارا جلدية ومن لم يتمكن من تخليص أرضه وإعتاقها من بقايا البشر يستمد به، أخي وقع ضحية ذلك، ومرض لمدة طويلة، لولا أن بعث الله لنا ببركة الفقيه الذي يقطن بحينا المترامي الأطراف لأخذ منه المرض مأخذه. كان العلاج بما يسمى: "أصوط"، ولا يملك أن يعالج به إلا من أعطيت له بركة خاصة لشفاء أمراض مثل: "النار الفارسية" وهو نفسه مرض يصيب الجلد وبعد التهابه يفرز القيح، هذا الرجل المبروك له القدرة على تشخيص المرض وعلاجه، بداية عمله كان أشبه بعمل

حداد يسخن السكين على نار ملتهبة، وبعد أن يحمر يقوم بلحسه ويجمع اللعاب في فمه ثم ينفثه على المنطقة المصابة ويكرر الأمر لثلاث مرات، ثلاثة أيام متتابعة. ويأتي الشفاء بعدها. منذ ذلك اليوم ونحن ننتبه للمكان الذي يستقبل فضلاتنا، أما ما سنعد به دورة مياه في المنزل فلا مجال للتفكير في فعل ذلك، فالبنية التحتية شبه منعدمة بالمنطقة التي نقطن فيها. حتى الكهرباء لا نمتلكه اختلسنا خيطا من بيت الجارة عائشة التي اختلسته هي نفسها من عمود الكهرباء بعدما أسكتت "المقدم" بجسدها، لم نسكتها بشيء سوى بالدعوات. هي امرأة من نوع خاص كانت تعيش برفقة والدتها بعدما انتقلت لعفو الله أصبحت تعيش لوحدها. تزوجت بعدها بائع خضار، رزقه يحصده من أرض فلاحية يبيع محصولها بالسوق الأسبوعية، لكنهما انفصلا بعد شهور معدودات. كنت ألاحظ ارتفاع نسبة الأعراس في فصل الصيف وبالمقابل ارتفاع نسبة الطلاق شتاء. الأسباب تختلف لكن توجد نسبة يسيرة تتزوج بهدف:"تحياد اللومة"، أي إثبات عذريتهن وشرفهن، فما أصعب أن تغامر القبيلة بترك الفتاة حرة تتجول ولم يسفك دم ما بين فخذيها. بالحلال. أغلبهن غير متمدرسات، فما خلقت المرأة إلا للبيت، أما الأطفال الذكور فلا مجال لممارسة حق الطفولة. يولدون رجالا، فمنهم من

يتجه للفلاحة، ومنهم من يتجه للبيع في الأسواق حتى لو كان رأس المال درهما واحدا وحقائب بلاستيكية سوداء، والبعض الآخر يحمل مقتنيات القادمين للتسوق من مناطق بعيدة على عربات تدفعها تلك الأجسام النحيلة، غير من يتجه للعمل بأشغال البناء أو التجوال بيعا. هم غير محتاجين لقضاء سنوات من العمر طويلة لنيل شهادات ستجعلهم في يوم ما معطلين محتجين أمام ساحات البرلمان يتعرضون للضرب بالسياط كما يضربون هم اليوم الحمير تأديبا وأحيانا كثيرة ظلما وجورا. لا ينتظرون شيئا من أحد، فالفلاح ينتظر أن تجود السماء ببركاتها فإن لم يكن ينقبون عن المياه بحفر الآبار، وإن سخر الله تعالى لهم من السماء بركات فالعمل بالأسواق يروج ويشتغل الكل وينعم بما يسد جوعه وجوع أهله.

البقشيش

ولدت وترعرعت تحت كنف والدي. أمي لم تتابع تعليمها وجهت منذ الطفولة للأشياء التي تخدم دورها كزوجة وكأم. كيف تطبخ؟ كيف تعد الخبز؟ كيف تعد الحلويات وتزينها؟ كيف تعد المشروبات، الحساء والعجائن وكيف تهتم بالأطفال، كيف تقتصد وتوفر دراهم اليوم الميسور لليوم المعسر؟ كانت أفضل من المتعلمات في تدبير شؤون البيت. أما عن الثقافة فكانت فقيرة شأنها شأن قريناتها...في أوقات فراغها كانت تهتم بأشغال الإبرة والصوف... تزين البيت بالديكورات التقليدية وتثرثر مع صديقاتها الجارات عند المساء. كن يجتمعن بحينا "حي البركات"، إذ تخرج كل واحدة قطعة من جلد الماعز أو الخراف تفرشها وتجلس عليها. كل واحدة أمام بيتها، يلغين ويضحكن وهن يمضغن العلكة. كانت تلك عادتهن اليومية. كنت أستغرب صغر حجم عقولهن ومحدودية تفكيرهن. كن متخصصات في إحداث قناة خاصة بالنميمة والغيبة: "فلانة تزوجت، فلانة طلقت، فلانة رجلها يخونها، فلانة باعت الدار، فلانة هاجرت للخارج...". لست أدري كيف كانت والدتي تصغي لهن وتشارك في نشر الخبر؟ لابد أننا عندما نغيب أو نتغيب على المجلس نكون جزءا من دائرة الحوار تلك. أبي منع أمي كليا

من مشاركتهن الجلسة المسائية بعد تقاعده من الخدمة العسكرية باكرا، بسبب مرضه. ذلك المرض الذي تسلل لبقية أجزاء جسده وأطرافه فأهلكه، مرض السكري كان معينا للمرض على هلاكه. تقاعد بعد عامين من الحياة برمتها وليس فقط العمل. كنت أبلغ من العمر سبع عشرة سنة عندما توفي والدي. أمي أصبحت بسبب التزام والدي الأخير "حاجبة"، أي سيدة لا تخرج خارج عتبة البيت إلا لحاجة أو ضرورة مهمة جدا، وتخرج ملثمة بملابس طويلة تستر كل جسدها ولا تصفه. كنت حينها أدرس بالسلك الثانوي، وجدتني مضطرة لترك المدرسة والخروج للبحث عن عمل. أخي أصغر مني سنا ولا يزال يدرس بالصف الأخير من الابتدائي يحتاج للمال ليتابع تعليمه، ملابس نظيفة، كتب، ومصروف يومي. أمي لن تستطيع فعل شيء أمام نهاية الشهر ومصاريفه. كنا عائلة وحيدة وصغيرة. نزح والدي بنا من شمال المغرب إلى جنوبه، إذ كنا بالبداية نقيم مع جدتي بأصيلا، فغادرناها بسبب عمله لنتجه لمدينة طانطان، هناك قضى بالخدمة العسكرية سنوات طويلة، عندما مرض تقاعد، وعندما توفي وجدنا نصيبنا من عمله الذي كان يأخذ كل طاقته وجهده ووقته بقشيشا يأتي والدتي كل ثلاثة أشهر، لم يكن يكفي حتى لسد ثمن الكراء المرتفع على جيبنا. فكيف به ليسد كل حاجياتنا؟

الصندوق

الذكريات تاريخنا الخاص، صندوق طائرتنا الأسود، الذي كلما هوينا من السماء نحو الأرض نعود إليه لنفهم سبب السقوط، نعلم أننا لن نعيد الأشياء لسابق عهدها لكن من يعلم لعل مدينتنا تشبه هيروشيما التي كانت لعبة الرجل البدين، أعلم أن الناجحين وحدهم مستهدفون، أن الخائفين وحدهم ربما يكونون هادفين، لكن هل أنا امرأة ناجحة كهيروشيما في نظرك! هل كنت مركزا للحياة وللدفاع وللقوة، حتى يصبح تاريخي بعد الدمار نصبا تذكاريا يجعلك وحدك تنصب خيمتك قربه وتكتب رسائل عن الأشياء الجميلة التي ضيعتها والتي كان من المحتمل أن نبنيها معا، ونكون معا رمزا للسلام. لا أن أصبح واحدا/واحدة من المشتبه بهم/بهن لسقوط ناطحات السحاب ببلدك، قد يتهم آخرون كما اتهمت رموز نعلمها جميعا، ليتم تدمير أوطانها والتدخل المباشر فيها بدعوى قرارات تخص الشؤون الدولية المشتركة و السعي للسلام، أغلب الذين يسعون لصنع السلام و التنديد بالانتهاكات يملكون لسانين لسان بلبل و لسان أفعى، أنا مملكة مستقلة بذاتها لا تحتاج حكاما آخرين ليُفتوا باجتهاداتهم الخرقاء بخصوصي، أنا وطن لي أهلي الذين ينهشونني و

يجعلون مني إله مقدسا يصنع بذخ الحياة كلما جاعوا أكلوا منه، أنا وطن لي فقراء مهمشون ينامون على ضوء الشمعة و يستفيقون على برد الفصول، أنا وطن لي ضعفاء يفترشون الأرض و يلتحفون السماء قرب مواقف السيارات والمحطات و قرب المحلات التجارية، بعد أن يأوي كل لبيته، هناك أناس يسهرون على أمن بلادنا تحديدا في الحدود ، تجدهم يفكرون -لو لا قدر الله- نشبت حرب مع الجيران هل يجوز لهم أن يرفعوا السلاح على إخوتهم الذين كانوا يرونهم يفطرون قبلهم بساعة أو بنهار شهر الصيام والأعياد ؟ ويسخرون معا على مهزلة الحدود والأصل؟

الحياة بنا

في بيتنا البسيط بمدينة ميدلت الذي يقع بحي إزكاغن، استضافتنا غرفة ضيقة وممر صغير يقود للباب الخارجي، لا أدري كيف عرض عم لي على والدتي أن تعطيه بعض المال، مقابل تلك البقعة المستور سقفها ببعض قطع الصفيح والإسفلت. يتسرب منها المطر بشكل مهول يطردنا خارجها دون أن يستقبلنا مكان آخر غيرها بعد أن نجففها. دون أن تجف السماء من بركاتها، أما أسوارها فما شكلتها سوى جدران المنازل المجاورة. كنا أقارب وقرابة الدم تجمعنا، لكن الحقيقة هي كوننا كنا وحيدين فعلا، فلا أحد كان مستعدا لمد يد العون لنا.

أبي كان هزاله الشديد لا يمكنه من الاشتغال، الشيء الذي أوجب على والدتي بعمر مبكر الخروج للاشتغال، وأي عمل ذلك الذي ستجود به عليها الحياة غير تلك التي تعتمد على قوة البدن أما أعمال الإبرة فقد كانت تجهلها، ولم تعلمها. أعمال أمي موسمية فقد كانت خاضعة لنظام الأرض. ففي "موسم الثمور" تنتقل لمدينة الراشدية أو مدينة أرفود لتشتغل بأراضيها بين القطف والتنظيم، أما البيع فيتكلف به الرجال، وفي موسم الليمون تنتقل لمدينة بركان من أجل الجني أيضا.

اعتـادت على اكتـراء غرفـة وبعـض معارفهـا مـن العـاملات، يتقاسـمن المكان. أما في موسـم التفاح فتقبع بعيدا عنا حيث هناك تلك الحقول التي تستقبل شبيهاتها ممن خرجن للكشف عن سواعدهن وتلثيم وجوههن كي لا يعرفن والعمل بشرف. لم يكن وحدهن بل حتى الرجال لهم حضورهم. حقا: "طرف الخبز ماشي ساهل". أما عندما تمسك الأرض رحمها ف"الموقف" هو المكان الذي ينتظرها كما ينتظرهن، هناك حيث تقبع جالسة جلسـة القرفصـاء أو واقفـة وقـوف المجـدين حتـى يـأتي مـن يحتاجها لتنظيف بيت ما وغسل أفرشته. أخاف عليها كثيرا. لأني لا أضمن ما قد تواجهه هناك، قد تعنف من قبل أصحاب البيت أو قد تتعرض للاغتصاب أو أي شيء لا يخطر على بال.

اليتيمة

ولدت وقاسيت من أجل البقاء، أمي اشتغلت لأجلي في كل شيء لتكفيني شر نوائب الدهر. لازلت أتذكر يوم صادفت سيدة تركب سيارة نقل كبيرة عندما كنت متجهة إلى الجامعة التي درست فيها، تحمل معها رزمة كتب عديدة بكيس بلاستيكي، ولائحة ورقية، تحتوي على أسماء الكتب وأرقامها الاقتصادية أقصد أثمنتها، بكت المرأة وهي تستعطف كل الراكبين وكنا ستة أفراد، اشتكت من المتطلبات الدراسية ومن تدني المستوى المعرفي لأبنائها، اشتكت من تغير المقررات المستمر والذي يلزمها باقتنائها كل عام دون الاكتفاء بمقررات أبناء العائلة أو الجيران التي يجودون بها عليها وعلى مثيلاتها. فقد أصبحت موضة تغيير المقررات تساهم في تحريك الاقتصاد إذ تعمل جهات كثيرة لتجهيز مقرر جديد يقال إنه يوازي التطور الحضاري الذي يجب أن يكون جيل اليوم متشبعا به. الغريب في الأمر فرض مادة الإعلاميات على أبناء القرى الذين لا يعرفون حتى كيف ينير المصباح الكهربائي ليلهم، لا يزال معظمهم ينير بالشموع أو القنديل الزيتي، إن لم أقل إنهم يأوون إلى مضاجعهم بعد صلاة العشاء بقليل، ومضامين لدروس تشكل واجهة للخيال العلمي بالنسبة لهم.

مسحت المرأة دموعها بعدما انتهى ما تحمله في جعبتها من كلام. حينها لمع بريق عيون والدتي مباشرة بذاكرتي، خشيت أن تكون قد بكت يوما نفس بكاء هذه المرأة، وأنا كنت أضم كراساتي فرحا بها دون علم بما حدث لها لتوفرها لي وتستلم بالمقابل ابتسامتي، كان نجاحي أجمل هدية لها. أتمنى أن ينجح أبناء تلك المرأة ويجلبوا السعادة الأبدية لقلبها وعينيها. قبلت رأسها بعدما وصلنا للمنعطف الأخير. وقدمت لها ما يمكن لطالبة حينها تقديمه.

أردت أن أعانقه غير أني أحسست بشلل غريب تسرب لذراعي، أردت أن أعاتبه فوجدت أن صوتي يخونني، أردت أن أرحل فوجدت قدمي تحت طوع إرادتي. أمسكني من طرف ثوبي الصيفي الأبيض المليء بالدوائر الوردية محاولا منعي عن قرار الرحيل، كنت ألاحظ أن شفتيه تتحركان كثيرا، ففهمت أنه نادم فعلا عن كل تلك الأخطاء التي ارتكبها في حقي، نادم فعلا لأنه رحل. وترك فراغه القاتل يتسرب لقلبي فباقي أعماقي، ساعدني كثيرا رحيله على وضع موازنة بين جحيم تواجده وسكون غيابه، لقد مات بالنسبة لي كل شيء، لم يعد وجوده يحرك شيئا غير أن غيابه يخلف سكينة لم أدر بنعمتها إلا وأنا أغادر المستشفى رابحة فرصة جديدة للحياة. لا زلنا في مقتبل العمر، التقينا قبل سنوات بمختبر التحليلات الطبية، كنت على أهبة الزواج من رجل مختلف الجنسية، غير أن هذا الشرقي غير مجرى حياتي، جعلني أفتعل كل شيء لأنفلت من الزواج، وألتحق به، لا شيء مميز فيه عدا ذلك الشعاع اللامع الذي يصدر من قلبي وتعكسه عيني كلما التقينا، إنها مضخة الحب بداخلي تولد طاقة غريبة تعطل كل قوى المنطق التي كنت أخضع اختياراتي لها، خرجنا يومها معا من المختبر وهو

يحدثني عن مرض والدته الذي أنهك جسدها والذي وحد بين داء السكري ومرض القلب المزمن. وكنت أحدثه عن قابلية الحياة لتحقيق المعجزات الطيبة، صلينا لأجلها معا، وأصبحت أضَمِّن في صلواتي أن يتغيب الزوج الأجنبي، أو يهرب، أو حتى يسرع ملك الموت إليه لينقله لعالم آخر غير الذي أتواجد فيه وهذا الفتى الشرقي، الحب يجعلنا مجرمين، ننتهك كل المقدسات لنحققه ونقول بأن كل شيء جائز في شريعته. لم يكن هينا علي أن أقنع والدي بتغيير عريس يوم زفافي، فشتان بين الأول والثاني، الأول غير مسار حياته من أجلي، ديانته، بلده، عمله، عاداته، تقاليده. حتى الوشم الذي يملأ جسده كان على استعداد لينزعه ويعيش مشوه الجسد إن أمرت بذلك، لكن كنت أحب الوشم الذي يغطي ذراعيه، كنت مولعة بشقرة شعره وبعيونه الخضراء، وبعضلاته المفتولة. رجل مكتمل يحمل بداخله روحا من الجنة! في تقابل معه يوجد الرجل الشرقي، صاحب العيون السوداء، والسحنة السمراء، والطول الفارع، والشعر الأشعث الذي لم يرس بره على لون، دواخله متقلبة أحيانا يكون مثاليا وأخرى فضا غليظا، كنت مستعدة لأغير من أجله عاداتي وتقاليدي وربما لو كان على ديانة أخرى لوافقته، وشتان بين من يتغير لأجلنا ومن نتغير لأجله، إن الإنسان لظلوم جهول فعلا.

خفيير ظل يراسلني كل يوم رغم أني تخليت عنه وطلب أن نعـوض الـزواج بالصـداقة ولكـل منـا الحـق في أن يحـتفظ بإحساسه دون أن يبوح به. لم يطلب مني أن أترك جهاد، كل ما قاله: "أنا في انتظارك متى احتجتني فأنا موجود". كان وداعنا حميميا ذرفنا خلاله الكثير من الدموع، وظلت المراسلات قائمة بيننا حتى اختفيت، كنت قبل النوم أتفحص علبة بريدي الالكتروني فأجد رسائله وبالنهاية لم أعد أتصفحها إلا نهاية الأسبوع، أصبحت مضطرة لمضاعفة جهود عملي، فدخل جهاد محدود ومصاريف علاج والدته في ارتفاع متزايد، ماذا قد يحقق دخل صحفية نزيهة أمام متطلبات الحياة؟ الحمد لله أن والديّ رغم أنّهما ليسا غنين لكنهما لا يحتاجان عوني.

صلت أمي كثيرا لله كي أتزوج رجلا غنيا، وصلى والدي كي أتزوج رجلا صالحا وعندما طرق خفيير باب بيتنا علما أن الله استجاب لدعوتيهما، لكن عندما تركت الغربي علمت أن الله استجاب لي. مهما اشتدت قسوة جهاد كنت أراها فحولة مكتملة، ولم ألحظ يوما أنها مجرد نزوة وستمر.

ضائعون في أوطانهم

كان الحزن يشل كياني وأنا أغادر مدينة القنيطرة في تلك الصبحية الباردة التي لم تشرق شمسها بعد، شمس قلبي أعلنت طلوعها المبكر من مغربها، لم أعارض فما عاد في الدنيا ما أتمهل لأجله. بصعوبة كنت أحبس تلك الدموع المتدحرجة على خدي المتورد سالكة سبيل الوجع المعتاد. لم أكن أعرف بشكل جيد أحياء مدينة القنيطرة لأتمكن من الوقوف على ساقي كوليد فرس وأمشي دون دليل، صادفت فتاة بطريقي، لأسألها عن السبيل الذي سيعرج بي لحي "الخبازات" إذ كنت بحي "الساكنية" وهو حي شعبي معروف يرتاده الطلبة للاستقرار فيه، وحتى العاملات وربما كل من ذاقت عليه ذات اليد ليقطن بحي راق، سيكلف الكثير ليستر الناس أنفسهم تحت سقفه. في تلك الرحلة أدركت فعلا ما معنى أن يسترك جدار بيت لا جدار رجل. الرجال غير آمنين! القاعدة لا تشمل كل الرجال لكن لا تبرئ الكل. حتى الرجال أحيانا يحتاجون لجدار يسترهم. لا تزال عالقة بذهني صورة ذلك الرجل الذي كان مستلقيا على الأرض شبه عار، كل دثار عليه ممزق، كان يرتجف بردا وهي تمطر في المكان المقابل لأحد الأبناك، مزق حاله قلبي حتى أن عيني دمعت، لكن لا أمتلك لنفسي أمامه

حيلة غير أني حملت صورته وعذابه معي لأتساءل عن أولئك الذين صادفتهم عيوني بنفس الشارع الطويل المليء بالمتناقضات، رجل يقتني لحبيبته سيارة فارهة من إحدى المحلات الأرستقراطية ليهديها لها بعيد الميلاد المقبل. وآخر يخطط لقضائه في باريس أو إسطنبول أو بالحانات بين قوارير الخمرة والنساء، من سيفكر في ذلك الرجل المسكين؟ من سيؤمن له الدفء في هذا الفصل الشتائي القارص المميت، لابد أن الأرض سترحمه لتدفنه تحتها ويحسب عند الله من الشهداء دون أن ترق له قلوب فاحشي الثراء.

الرق والكراسة

جلست على كرسي خشبي وأمامي طاولة أحاول تمثيل فعل الكتابة على رق قديم، مستعمله ريشة ومحبرة، وعلى الطاولة جانبا جرة ماء. أرتدي الزي التقليدي الذي قدمت به من بلدتي وعلى كتفي ثوب أبيض مخلل بحلي من الفضة، جدائل طويلة، ويدين مخضبتين بالحناء، قال الرسام وهو يحاول فك أسرار محياي قبل الشروع في بصمي على لوحته: "أي جمال رباني طبيعي تمتلكينه يا سيدتي حادة، أنت بمنتهى الجمال! " لم يكن مجرد رسام بل كان شاعرا مثقفا، وبين هذا وذاك إنسانا.

كنت أعود قبل الحادية عشرة صباحا للمنزل، لا بد ألا يحس الأبناء بغيابي أو بشيء تغير. استمر الحال على ما هو عليه ولم تنته اللوحة بعد، تحول الرق الذي كان بين يدي لكراسات أتعلم منها فن الخط والقراءة، محوت الغبار على سنين مرت من عمري لا أذكر منها سوى ذلك المعلم الذي قدم من مدينة فاس، كان يمشي كيلومترات بين الجبال ليصل حجرة الدرس المنزوية خلف الكثبان الضبابية، مرة على دابته وأخرى على قدميه، ترك العمل عندما بدأ ينتفخ بطن إحدى بنات الدوار، رفع عليه والداها دعوة قضائية كللت بذبح الفتاة

من الوريد إلى الوريد! كانت المسكينة قاصرا والفتى قد تخرج من كلية الخداع كهلا. بدأ رجال القبيلة يخشون على بناتهم وعلى ضياع ماء وجههم فشرعوا في تقديمهن قربانا لعرفهم، يزوجن قاصرات بالفاتحة والشهود وصحن كسكس، ويجال بالمنديل الأبيض المنقط بالدماء بين القبائل فرحا بعذرية العروس، وويل لمن لم تعطهَ الطبيعة بِركة من الدماء تفي بالغرض. ربما الأشياء بدأت تتغير اليوم، لكن والحق يقال لم يتغير شيء. لا زالت بنات من مناطق كمدينة آنفكو وغيرها تُزوجن قصرا حتى لو تم تطليقهن فيما بعد، قد يحبلن مباشرة ويصبح الطفل أو الطفلة شخصا بدون أوراق تبوثية تمكنه من الانخراط في الحياة الحضارية التي تخضع لبرمجة الحواسيب، أناس خارج الوطن وهم فيه، أناس خارج الحضارة وهم بانوها، طفلات أمهات لأطفال من صلبهن، والحياة لا تزال أشبه بلوحة تشكيلية لا تتغير معالمها رغم التطور السريع الذي يشهده الكون.

مذكرات امرأة

استغرب تلك الأشياء التي التقطتها ذاكرة والدتي عن طفولتها، تقول: "بينما كنت أنموا كنت زهرة متفتقة بالحياة، شعري ذهبي ناعم خداي وردتان متفتحتان، جبيني شمس مشرقة، نهداي وارفتا الظلال كثمرتي ليمون فلسطيني، ساقاي مرسومتان كنهري دجلة والفرات كنت وطنا من أجمل الأوطان لي ابتسامة تستكين لجواهرها النفوس، لكن قبيلتي كانت تشعر بالتهديد من بروز فتنتي الطافحة، فأصبحت ملزمة بمنع جسدي من اشتعال فتنته، إذ بدأت ألف نهدِي بحزام عريض كي أمنع نموه وأذيبه بشمس العيب كجبل جليدي غير موطنه من الشمال ليستوطن بالجنوب، كسروا مرآتي وكل أدوات زينتي، لم يكن جمالي ليغيب رغم كل محاولات الاستنزاف و طمس المعالم..." استغربت كيف كان لهم أن يحاربوا نمو جسد بشكل طبيعي كان يكفي أن تستر نفسها بزي لا يشف و لا يصف وانتهى الأمر. من يمنع الطبيعة من أن تفوح بجمالها وتنعكس على مرايا الشلالات والأنهار؟ المرأة تشبه الطبيعة، كل امرأة على وجه الأرض جميلة بطريقة ما، أستغرب هل من أجل الحفاظ على وهم ما نقتل سوانا؟ لم يقتلوا أمي لكنها كانت أحيانا على قيد الموت تمارس الحياة قانونهم هنا يتحد مع

قانون الغاب، هناك حيث ترغب الشجرة بأن تثبت فروعها كي تنمو أكثر قد تحتاج لقتل من يجاورنها خنقا حتى الموت تحت الأرض. كي تستمر في النمو والاغتيال حتى تغتالها يوما من تكبرها. اغتالتهم أمي بالزواج بمن أحبت، لكنه اغتالها بأنسب فرصة، هجرنا ولم أره، فقط بالصورة مررت لي ذكراه، ولم أصادفه، ولم يزرنا يوما ليطمئن إن كنا لا زلنا على قيد الحياة أو على قيد الموت، اكتفى بالرحيل وتركني على قلبها وصمة حزن.

لن نلتق

كنت أعلم أنه لا يصلح للحب، وبأني امرأة لا تصلح للزواج. لكن شاء القدر أن نلتقي في تلك المدينة القنيطرية بوكالة التشغيل، جئنا لنبحث عن عمل، وخرجنا منها ونحن صديقان. بدأنا نلتقي كل صباح للبحث، نتناول غداءنا معا، ونقضي المساء في التسكع بين شوارع المدينة ومقاهيها، أحببت وجودي معه، فاستمرت المواعدة بيننا، مرت الأشهر الثلاثة الأولى اشتغلنا خلالها بشركة لف الأسلاك، كنا نستمتع بقربنا معا، ونحن نحزن، ونحن نفرح ونحن صامتان، ونحن نحب بعضنا البعض. كان حبه يتسرب لقلبي كجرعة سم ستقتلني ببطء. وكنت سعيدة بمصير الموت ذلك.

بعدها تغيرت حدود المسافات بيننا، تغيرت لغتنا وكلماتنا المنتقاة، تغيرت طبيعة مواعيدنا، وبدأ الرجل الشرقي يظهر بداخله، فبدأت الحكاية مع الأوامر التالية:

-لا تضعي المكياج.

-ارتدي ملابس طويلة.

-لا تذهبي لمكان دون إذني.

-لا تتحدثي مع رجل غريب عنك، حتى لو كان زميل عمل.

-لا تخرجي دون إذن مني.

-ولا تكثري من الأسئلة، كوني الزوجة المطيعة لي.

كنت كطفل لم يتعلم المشي بعد، وعندما بدأه سقط في بئر، فرحت ببنوده، وكان شرطي الوحيد:

-لا تخني، فأنا والخيانة لا نلتقي في قلب رجل.

سلمته مفاتيح حريتي وسجنني ليمتلك العالم ويخسرني، فقد كشفت لي الأيام أن معظم الرجال الذين يسجنون زوجاتهم رجال خائنون.

نساء "بدون"

أبنائي يعتبرون والدهم رجلا غريبا، يمثلونه بابانويل الذي يأتي على رأس كل سنتين يقدم الهدايا ويترك برد المشاعر ثم يرحل! الكتب في غيابه جعلتني أرى الأشياء بشكل جديد، جعلتني أفهم حقيقة أن يكون المرء إنسانا له وجود معترف به، وكم هو تساؤل الوجود صعب وعميق؟

لاحظت في قراءتي لرواية ساق البامبو كيف يلقب غير الكويتي "بدون"، وتذكرت أن حامل الهوية في ذات الوطن قد يكنى أيضا بدون. لا زلت ليومنا هذا أتساءل لماذا مقابل "مهنة" بالبطاقات الوطنية للنساء غير العاملات توجد تعريفة: "بدون" ماذا تعني؟ إلى أي حد قد يكون الإنسان فعلا بدون، ألا يكتفي الرجل الذي يعبئ الفراغ أن تلك التي تجلس في البيت تخدمه وتربي أبناءه لها عمل من أنبل الأعمال في الدنيا، أن تحبل وتنجب وترضع وتربي وتسهر وعندما يكبر ابنها ويشتغل بمصلحة الضبط يكتب لها "بدون"!

أحاول أن أفهم قواعد البشر فتضيع مني الطريق، أيتها الكتب لماذا فعلتي بعقلي الذي يثقل جمجمتي كل هذه الأشياء وأنتِ تنامين مطمئنة البال؟ وربما أنت ساهرة ترهقين فِكرا آخر غيري.

الدمى البدوية

يقال إن بنات البادية، مطيعات طائعات، العائلة تربيهن تربية الخنوع والخضوع. لا بأس ربما هو جزء من أدوار الزوجة الكثيرة التي يجب عليها أن تقوم بها طوعا أو كرها، فرق كبير بين النساء المتعلمات والجاهلات، بعد تعلمي فهمت لماذا تمنع الفتيات من التمدرس ويتم الزج بهن للمطبخ وإتقان أدوار تليق بجسدهن المحفوف بالمخاطر، داخل أسوار البيت سيتم صونهن وحفظهن، أما في الطريق الموصلة للمدرسة فإن سلمن من الوحوش الحيوانية فربما لن يسلمن من الوحوش البشرية. أتساءل فعلا بخصوص تلك الدواوير المترامية الأطراف كيف يمكنها أن تغامر ببعث قطعة لحم هشة تتجول بين الجبال عابرة مسافات كيلومترية طويلة كرسالة في قنينة زجاجية من الممكن أن تكسر القنينة وتتمزق الورقة بفعل مياه الأنهار أو البحار ويضيع المرسول ولا يصل. ربما لهذا السبب أو غيره آثر عدد من الآباء حرمان بناتهن من التمدرس، فمن الأفضل أن تحرم الطفلة من الدراسة ولا يحرما من ماء الوجه، اليوم أغلب النساء يلزمن أبناءهن بالتعلم رغم الجهل، يحفزونهم على التميز وتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه، فلا يوجد من يتمنى لك الخير أكثر من والديك، هل كان آباؤهم فعلا يعتقدون أنهم

يحققون لأجلهم شيئا وهم يزجون بهم في عمر الخامس عشرة للزواج؟ ربما عندما ينظرون لأبنائهم يحمدون الله كثيرا على فضلهم، وعندما ينظرن للشق الخالي من فكرهن يخيب الأمل، لا يستطيعون فهم مكنون ما يحضره ساعي البريد من رسائل، هل هي فواتير كهرباء أو ماء أو ضريبة؟ لا يعرفون كيفية التعامل مع وثائق إدارية أو حتى مع هواتفهم البسيطة يكتفون بترميز أهم الأرقام لمعرفة أصحابها.

عندما تثقل الهموم علي أغمض عيني بعد أن أضم إلي دميتي الخشبية التي زينتها بعقد سيقان الخيزران بخيط، على شكل الرمز زائد، كسوتها واخترت لها شعرا أسود من شعر الماعز، تذكرت من جديد وجعي فالكثير من الفتيات يشبهن هذه الدمى الخشبية، لا يملكن من أمرهن شيئا...كم أنا متعبة أحتاج لأن أعيش طفولتي وأخطو خطواتي الأولى فوق الماء.

زنبقة الحب

رغم التناقضات التي كنا نسلم نفسينا إليها قبل البوح كان هناك دوما بصيص أمل. اليوم عيون آمالنا أصابتها موجة من الرمال قمت أنا نفسي ببعثها لك بعدما بللت شطان دموعي لذة العذاب المنكهة بتوابل الصبر. تراك تعلم كيف أعيش اليوم؟ كالبوم معلقة بشجرة آمال وعيني محدقتين في أدق تفاصيل الظلام لعلني أبصرك إذا ما قررت العودة، حكمة الأبراج تقول ذلك، فكل من نحبهم يغادروننا ولا يرجعون.

بالغت يومها في التملي في ملامحك على لوحة ذلك الملصق الذي يملأ جدارية الإعلانات بجامعتي التي أدرس فيها، كنت حينها على عجلة من أمري، لكن نظرتك الثاقبة استمالتني لأول مرة يخفق قلبي لصورة رجل صورة جعلتني أتخيل أن صاحبها يرافقني فيما بعد كظلي، غير أنه لا يختفي إذا ما غابت الشمس إلا لينام بين عيوني وجفوني ويعلن ثورته التي انقلبت ضد إرادتي قلبي وعقلي بعد كل شروق جديد، اجتهدت كثيرا لأجعله يبدو عاديا بذاكرتي، رجل وسيم الكلمات، لم أقرأ له شيئا قبل أن صادف قدري دون موعد استلبت من ذاتي. أعجبت بصورته ولم أكن أعلم حينها أن زنبقة حبه تنمو بدواخلي.

شيك الجسد الموقع على بياض

بعض النساء لا يمكن أن تشك فيهن، طيبة قلبهن تنبع شلالا بهيا من ابتساماتهن، صفاء عيونهن تعكس جمال أرواحهن، صادقات وطيبات كيف يمكن أن تشك فيهن ومنهن من تفتح لك باب بيتها وتترك المفتاح بين يديك وتقول لك أنك صاحب البيت وهي الضيفة عندك، لا تتبع خطواتك داخل غرفة نومها، ولا أصابعك وهي تعبث في أوراقها الشخصية، تغادر بيتها وتتركك داخله. بعضهن من تلك الطينة التي تدس لها قسوة الدنيا المكائد، فتجد جيبها معدما، ولا يضيق صدرها بك، تأتيها الأرزاق من أوسع الأبواب وتظل تتساءل أنا لها هذا؟ هذه التي لا راتب شهري لها يسد ثمن الكراء وفواتير الكهرباء والماء. ولضيق ذات يدها يصبح العمل الوحيد المفتوح أمام عينيها بوابة التجارة برأس مال غال على كل شريف، بيع قطعة من سريرها عفوا بيع جسدها بالكامل، فتُشرع المسكينة الوحيدة بابها للفحش، الذي تغطيه بلفافة "حب"، كقطعة الدواء المرة المحلاة، لمجابهة قرقرة البطون والأفواه المفتوحة، يقع على كاهلها ثقل رعايتها تنفق أكثر مما تبيع، وتفتح بابها لأفواه قد تضيع في الطريق. وفاحشو الثراء مبعدون عن دائرة ليلها الكحيل، لا أحد منهم فكر في عانس دهس قطار الحياة

بسمة أيامها آخذا معه ظل كل المحارم الذين قد يكفلونها، هل منهم من فكر في المطلقات والأرامل، وقدم برنامجا لحصد ميزانية تتكفل بهن، وتبعدهن عن "شيك الجسد" الموقع على بياض؟ ما دامت النساء تتجولن ليلا في أماكن ممنوعة، وأخريات في الحانات وأخريات في منازلهن، لرفع مزاد ليلهن فلا أحد فكر فيهن. يبقين ملائكة النهار ومستغلوهن شياطين الليل.

زهرة الليزانيس

رحلت تاركة المدينة بمعالمها الحزينة وهي تحاول عبثا أن تجعلني أبقى لكن لا إرادة لنا معا أمام إرادة الرحيل، شهوده أقوى من حواسي تلتهم الحافلة الطريق ودهني مشتت بين طرق الحب المنعرجة فجدتي ستفارق الحياة وليس هناك أمل إذا استودعتها المقابر أن أراها من جديد، لكن معه يوجد أمل. وسأبقى أقتات على ذلك الأمل. بعد الرحيل لم أرحل لمكان بقيت حيث تقام الجنائز ويبكي الأحبة لم أبكك بقدر ما بكيتها لم أتذكرك كما تذكرتها، حينها كان حبك أشبه ببذرة لم تكتمل لتنبت وتعيش عمرا قصيرا لتعلن الرحيل ثم الانبعاث من جديد، تشبه كثيرا بقلبي زهرة: الليزانيس، تلك التي تشكل أسطورة الرحيل والهجران، فقدرك الرحيل كما أخبرتني يوما، تولد في وطن وتعيش في وطن وتموت في وطن، ليعلم الكل من تكون. غير أني أغرب منك أصبحت أتمنى لو أتحول من عاشقة لوردة بقصائدك المنثورة دررا على لوحات التاريخ، يا رجل الخيال والواقع، يا رجل الحرب والهوى كيف لسهامك أن أصابتني وغيرت قدر البساطة في حياتي، لأغتال فيما بعد نفسي بين دروب الحياة فلا يحق لي أن ألاحقك لأن الأضواء تحول بيننا معا، هوة من الثقب الفضائية التي تبتلع ربيع

حياتنـا كي لا تسـعد بـاقي الفصـول باتحادنـا لاسـتكمال دورة الحياة الاعتيادية.

رجل يشبه الوطن

غادرت وطني لوطن لا أعرف سوى أنه وطني وإن لم تطأه قدمي فما أعلمه هو أن كل مكان تحل فيه وطني، عدت لحروبك ورجعت لأيامي البسيطة العادية، عدت لأحقق لي اسما يصلك صداه لعلك يوما تعلم بوجودي. لكن لم يكن ذلك كل همي حقيقة فقد كنت أبحث أيضا عن عالم يشبهني وأترك فيه نسخة مماثلة لي، ربما الحبر وحده يتقن رسم معالم ملامحي وأحاسيسي، ربما لأننا في أشياء ما نتشابه نتطابق بدأ قلبي يبحث عنك لدرجة إدمانك كالأفيون، الذي ينموا بشكل وحشي بين الجبال وعلى السهول. أرتاح كثيرا كلما فكرت فيك لأني أعلم حينها كم أنا أحتاج للحب وهذا أكبر دليل على كوني أحمل قلبا وأني امرأة تمشي بقطعة ثوب لونها أحمر.

هذه هي لعبة القدر التي يتقنها، في عقد قران تام بين الأحلام والواقع، يظلان عالمين منفصلين، خطين متوازيين مستحيل التلاق المنصف بينهما، إلا على حساب انكسار أحدهما. من أجل الاستمرار. كذلك كان حلمي وقد تبخر عندما صادفته صخور الحياة الصلبة العاتية.

لست أدري لماذا اجتاحتني رغبة في مشاهدة فلم درامي كي أبكي بحرية وأحترق دون أن يسألني أحد عن السبب؟ البكاء في بلادي جريمة يعاقب عليها قانون المجتمعات، فتبدأ الحوارات بسين وجيم، دون أن يدركوا المغزى الحقيقي لـ "جيماتي"- أجوبتي-لم أنتبه لتلك الشخوص المتحركة داخل علبة التلفاز، بكيت بعمق، وقد جعلتني أمي أفهم أن المشهد جد كوميدي ومضحك، فلماذا تفاعلت معه تفاعل الحمقى؟ ماذا أقول لأمي غير إعطاء جواب غير مقنع يجعلها تعود لسبحتها وتستغفر الله لذنوبي التي لا تعرف أي طريق سلكته بحياتي.

-أمي أنا أفهم حقيقة المشهد بعمق، إنها كوميديا سوداء، تعكس المعاناة في قالب مرح.

أنا نفسي لم أقتنع بجوابي، لكنه تبرير لشيء من منعطف موقفي الضعيف. تمنيت لبرهة وأنا أحتسي كوب دموعي المالحة

الممتزجة بكوب الشاي المنكه بتلك الأعشاب البرية التي تتقن والدتي إعدادها. كم تمنيت لو أن تلك الأمطار التي تصارع كل الطبقات العليا تذوب و تتهاطل لو أنها تمطرني وحدي وتبللني حتى أختلط في مزيج واحد ينسيني كل الأوجاع.

فاقد الشيء لا يعطيه

فاقد الشيء لا يعطيه، لكنه أعطاني أكثر مما فقد. أعطاني الوطن والأهل والكثير من الحب. أعطاني أحلاما وأمسا جميلا، جعلني أنسى كل تلك الدموع التي أغرقتني وأنا ربانة لسفينة الحزن والألم. فكم أغرقت أحزاني مدنا بحالها وأسقطت سلاطين وملوك عن عروشهم. هي آلامي كما أحسستها يتمتني بعد يتمي مرتين، فقدان الأم بعد رحيل الأب. فقدان الأم من أقسى وأوجع الخسائر التي تصادر كل بطاقات الصبر والاحتمال، ذلك أن أمي كانت أكثر من الحياة بالنسبة لي، فماذا تساوي الدنيا بأسرها من دونها؟ ربما القدر كان رحيما بي إذ لم يحرمني منها هي الأخرى بسن أبكر من هذه، لكن الحقيقة تقول إن الوجع لا يتغير طعمه سواء استعجل قدومه لحياتنا أو أجله لا نملك فعل شيء أمام الموت والحب معا لا يستأذنا، غير أن الموت يأتي ليأخذ والحب يأتي ليعطي. الموت بارد والحب محرق لافح، فقط في هذا هما مختلفان. أنا لم أرد الحب بل أردت الموت. تمنيته أن ينتشلني ببروده وبدفء الحب، تمنيت لو أخطأ أمي وأصابني، وبرحيلي أترك لها الكثير من الحب دون الألم.

آه أمي لـو أشـعل كل عيـدان الكبريـت، ليـنـار لي الـدرب إليـك وعندما تنتهي كلها أترك جسدي وأرحل، طبعا إليك.

الشقاء

لم تكن طفولتي طفولة عادية بل كانت في كل شيء كانت رجولة، بعدما فقدت والدتي عملها، فكرنا مليا في مشروع نكسب منه قوة يومنا مهما كان بسيطا، لم يكن هنالك حل يتناسب وخبرة والدتي غير استغلال موهبتها بالطبخ وإعداد الحلويات والخبز المنزلي كانت تعدها كلها وتبيعها للجيران، وكان لي نصيب من العمل طبعا، أخذ الخبز والحلوى في تلك الطاولة التي تضاعف وزني مرات ومرات للتجول بها في أركان تلك المدينة المخيفة التي تشبه فم "غول" بأنياب مفترسة وقواطع حادة ومخالب ناهشة. دعوات أمي كانت كفيلة بحمايتي. أيام الجمعة والسبت والأحد تباعا كنت أقضيها بين أسواق المدينة، ومن حين لآخر أجد لي ركنا أنزوي فيه لأخرج دفاتري وكتبي وأعد دروسي. لابد أن يكون تفوقي من أرقى الهدايا والمناديل الورقية التي أمسح بها شقاء أيام أمي، وما تبقى من أيام الأسبوع كنت أقضيها في المدرسة ثم الإعدادية ثم الثانوية ثم الجامعة. سنوات بطولها اشتغلت في كل شيء حتى في النظافة، علمتني أمي أن العمل وكسب القوت الحلال من أشرف مناهج الحياة.

لم أكن أتوقع بعد حصولي على أعلى الشواهد أني سأصبح معطلة عن العمل، لم أكن أتوقع أن شياطين الكتابة وملائكتها لم يفلحوا أيضا بقبول أي من دور الطبع والنشر بجعلها تخرج من صدري ومرارة أيامي للأوراق لأيدي القراء. لم أفلح في شيء. ما أصعب الفقدان في بحر لجي تتلاطم أمواجه حتى نبصر منارة النجاة فيضيع كل شيء وينطفئ نور المنارة كما عيدان الكبريت، دونما رحيلي. مكتوب علي البقاء فقط كي أشقي وأشقى.

فوبيا الحب

لم أعد بعد رحيلها أرغب بالاستمرار، تعبت! هل تملك أن توقف هذا التعب؟ أموالك ومعارفك وأصدقاؤك لم يمنحوا والدتي المزيد من العمر حتى أقبلها أكثر. ببساطة الرحيل رحلت. هذا ما قلته له وأنا أودعه بالمطار، لم يجبني وعدني بالعودة من جديد. لأول مرة أستعطف رجلا من أجل البقاء كما فعلت معه. لكن وطنا آخر ينتظره، فقد أبناءه تباعا، هو يملك أن يعيد بعضهم ممن لم يرحلوا رحيل أمي، يملك أن يوقف نزيف الأرض بصوت منه، يملك أن يغير مصير قضية فقط بإعطاء رأيه، الناس يؤمنون به، لأنه نبي في زمن انتهت فيه النبوءات، كنت أحسني في كل لقاء جديد معه أنه الأخير، خشيت أن أفقده كما أفقد كل شيء تعطيه لي الحياة. لا شيء ثابت حتى الأرض تدور حول نفسها، حتى الشمس تمشي لمستقر لها، إنها سنة كونية. أفكر كثيرا في أن أرحل قبل أن أعثر على خبر اغتياله أو إعلان تعزية يحمل اسمه عنوان الصفحة فيه...في أحد الجرائد التي أتصفحها كل صباح أو أسمع الخبر بين صفوف المثقفين يتناقلون أخباره كما آرائه. هكذا اعتدت وأصبحت أنتبه له بعدما دخل حياتي.

أحلام معلقة بك

كنت في طفولتي ومراحلي الدراسية أسافر وأرجع من جديد إلى النقطة التي بدأت فيها، كان من الصعب جدا علي فيما مضى أن أضع خطا واضحا أحدد به حدود علاقتي بالمستقبل. اليوم يمكنني رغم الوجع أن أرحل، وأسكن بمدينة خالية من الأضواء والشوارع العريضة، أحب المدن الجبلية، كبرت فيها وهجرتها لأسكن المدن الساحلية، كانت الحياة فيها تشبه تلك القصور الرملية التي تحطمها أولى الموجات، وفي حياتي ما صادفت أقوى من موجاتك أنت، وقبلها موجة رحيل أمي، تلك التي لم تبق على ذلك القصر العالي من شيء إلا وهدمته وساوته بالأرض المعمدة بقدر الرحيل. لن يخطر ببالك أني سأعيش هنا، في هذه المدينة التي ذكرتها يوما لك وقلت لك أنها سحر متبخر لا يدرك كل الناس جواهرها التي لا تلمع إلا بالليل لها إطلالة من السماء معشوقة بقلبي، كنت أعلم أننا لن نزورها معا إلا أن بداخلي أملا معلقا دوما بك إن لم أقل هي آمال متعلقة بك وحدك.

رجل حرب لا حب

لا تريد الاقتراب، أعلم أن هذا هو حل الأحجية، ببساطة لو أحببتني بصدق لطويت الدنيا بمسافاتها وهمومها كطي السجل، وجئتني على براق الشوق تحرق مسافات تباعدنا وتجعل بيننا مدنا ممنوعة كبيكين وأسوارا تحيطها كأسوار الصين العظيمة، أعلم عن قصص الحب الشيء الكثير، لكن ما رأيته عن الحب في عينيك حيرني تفسيره، فأراك في الهوى صادقا وفي الفعال مجحفا قاسيا. ترى تلك المدن التي تبنى أمام عيونك وتهدمها القنابل ويسكت الرصاص صوت ساكنيها، جعلت منك رجلا من تركيبة القسوة، لكن ما ذنبي أنا؟ أو لست أنا نفسي امرأة من وجع وأنين، امرأة تتقن الرقص على موسيقى معقدة التركيبة فيها شيء من ألمي وشيء من فرحك، فيها شيء من مملكتك وشيء من عملاتي التي تحمل صورة وجهك، فيها شيء من خبرك الوراثي والكثير من دموعي. أتقن الرقص لو تعلم على مسارح من الفضاء المظلم المعتم، ربما ستجدني امرأة من حزن تحب الانزواء بأركان الظلام كلها في لحظة واحدة، لكنك غير مدرك لذلك التمرد الذي يسيطر على سكوني، غير مدرك لذلك الحصار الذي تفرضه على وجودي.

قلبي ينزف من الألم وأعلم أن هذا الألم ترددده كل حروفي. اعتزلت القصيدة في غيابك وفي حضورك وأمسكت الريشة، لأرسم بكل ألوان الكلمات عينيك ودمعتي، ابتسامتك وأنيني، أناملك ولمساتي، فكم أنا مؤمنة بأننا روح واحدة مبعثرة في جسدين، بربك أعد لي روحي وقل لجسدك أن يحرق لهيب تلك المسافات، قل له أن يشعل ثورات ضد حصار الحب، قل لكل المنضمات الإنسانية وغير الإنسانية أن تطالب بقوانين في الحب عادلة. نعم أنت تعيش الحرب، وأنا أعيش في سلم، عفوا هو ليس سلما لكنها حرب عصرية تشعلها دواخلي ضد كل منحرف عن شرائعي التي تضمن قربك. "في شريعة الحب كما الحرب كل شيء جائز وممكن".

نبتة الصبار

كنت أحسب أن مرارة الأيام علمت قلبي القسوة وعيني الجفاء. أتعبني تجاهل هذا الذي أحمله بين جوانحي لمواجهة معركة الحياة، في النهاية تركت كل المعارك لا منتصرة ولا منهزمة لأمثل أمام نفسي بعدما أغلقت باب بيتي واعتزلت الحياة. أغلقت هاتفي وألغيت كل حساباتي التواصلية، لأحس بهذا الأكسجين الذي أتنفسه، وهذا الماء الذي أتعطش للارتواء به ولأسقي نبتة الصبار هذه التي أزين بها شرفة غرفتي، أحببت أن أصادقها أول ما رأيتها ليست متطلبة ولا مكلفة وتوحي بالصمت وتعلم لغة الصبر. لم تخف عني شوكها الحاد بل كانت صريحة. ليت الأيام كانت تكشف لك شيئا من عسرها حتى لا تفرح بيسرها فقط. لم يكن زوجي ليميل مثلي لهذا النوع من النباتات ولم يكن ليتوقع لو أنه معي اليوم أني سأحبها في لحظة من الزمن.

كرسنا في حياتنا السالفة حب أشياء جميلة لم يكن أحدنا ليتوقع أننا في يوم ما سنصادرها أو لأقل أصادرها من حياتي كي لا أتذكر وجع رحيله.

اتحاد فيتونيا والصبار

استغربت كيف بعد عودتي من ذلك السفر الطويل أن أجد ذلك الاتحاد الغريب بين نبتة فيتونيا تلك الصغيرة الأوراق ذات العروق النازفة الحمراء والصبار. لست أدري كيف؟ جغرافيا الطبيعة وقوانينها مختلفة عن سنة البشر. أحببتهما معا وأحببت الزهور الراقصة البيضاء بشكل يذكرني بلقائنا الأول عندما لمحت الدمع يملأ عيوني والابتسامة تملأ محياك لأن طيف الفتاة التي زارتك بأحلامك مند عهود حقيقة وليست من وحي الخيال، لأدرك أن تلك الدموع التي صادرت ابتسامتي بعد رحيلك كانت لتخبرني أنك من ستكون بالأخير الطيف الزائر بحياتي. أعلم أنك معي وأنا أكتب رواياتنا أعلم أن تلك الرياح التي ترفع ستار نافذة غرفتنا هي رياحك أنت. أعلم أن الشهداء لا يموتون، لذلك أحببت استشهادك.

الوطن بعيدا

بدأ الليل يرخي بسدوله علي، الباص تأخر وقد بدأت تمطر. الحياة صعبة وليس من السهل الحصول على كل شيء نريده بعاصمة الأنوار هذه، هذا الشهر لم أستطع توفير مصاريف البيت كاملة ولازالت فاتورة الكهرباء والماء معلقتين، أشعر أنني مهددة بالطرد من طرف صاحبة البيت، تلك التي تجبرني على العمل بالحانة الليلية التي تملكها، تقول إن عيوني الشرقية تسقط الزرزور من فوق السور، تضيف قولا أن لي طريقة تواصل ساحرة ستريح الزبائن القادمين من أجل نسيان همومهم والترفيه، نست بأني أكثر الناس هما وغرقا في المشاكل، لتغرقني في مشاكل غيري!

هكذا همست لنفسي الصامتة بداخلي وأنا أنتظر الباص الذي لم يأت بعد، لأعود مجددا من أجل استكمال الدورة الاعتيادية في ذهني. وما العيب؟ لا أحد يعرفني هنا، وحتى لو صادفت بالحانة شخصا يعرفني فليس له حق التدخل في حياتي والعمل الذي أجبرت عليه، ثم من فيهم يطرق بابي ويسأل عني بعدما نهشت السنون عمري، المرأة المطلقة تبقى دوما متبوعة بالسوء والقول الجارح، حتى لو كانت سيدة نزيهة وطريقها سليمة، هكذا هم الناس لا يتعبون من اللغو والقذف

في أعـراض النـاس. لـن أكتـرث لهـم، بـل سـأفكر في مصـلحتي الخاصـة ومـن لـه شيء عنـدي سـأدفعه لـه بالضـعفين. لازالـت أفكاري السـوداء والبيضاء تتشاجر في سلم بذهني، حتى وصول الباص، أخذت مقعدا خلفيا قرب رجل مسن يتصفح جريدة، شدّ انتباهي ذلك الإعلان: "مطلوب سكرتيرة تتقن اللغة العربية بسفارة المملكة المغربية بفرنسا"....

انكسار المركب

أبي أقعده المرض، يخضع كل أسبوعين لحصتي غسيل كلوي. لم تسعفنا الجمعيات بعون مادي، ولا حتى الشهادة التي حصلت عليها. اسمي كوثر، أبلغ من العمر 31سنة، خريجة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، معطلة، مطلقة، وأم لوليد. حياتي بئيسة للغاية لولا أن الله تعالى يحيطني بحبه وكرمه لجننت وأنا وسط أكوام البشر غير المخيرين في قدومهم. عملت في كل شيء لأنهي تعليمي، إلا في الدعارة، لكنني كنت أحتال ومجموعة من صديقاتي الفقيرات جدا على وفود الخليجين والغربيين الذين يأتون لبلادنا الكريمة من أجل السياحة. تزوجت بسن مبكرة جدا، الحب وطيش المراهقة أعمياني، ارتبطت بعد نشرة تحذير لوالدي بأني سأقتل نفسي إن لم يوافقا على تزويجي بزميلي في الدراسة، ولولا ذلك لما فعلا خصوصا عندما بدأ بطني يكبر. زميلي في الدراسة لم يكن له عمل نعيش منه، كل ما كان يفعله عدا الدراسة مساعدة والده بمحل الخياطة، فيما بعد ترك الثانوية ليشتغل نادلا بمقهى، لم أترك صفوف الدراسة بل كنت ملحة على المتابعة، كانت والدته ترفض أن أدرس وكانت أخته تجز شعرها كالخراف كلما فكرت في متابعة الدراسة، لم أكن أعبأ فقد أتممتها حتى

حصلت على دبلوم الإجازة. تغير تعامل زوجي، بعد قدوم الوليد، أصبح يكثر من السهر خارجا، لا ينفق على ابنه، وينتظر مني أن أخرج للعمل، بل أكثر من هذا أصبح يمارس فعل الخيانة، وهي الجرم الوحيد الذي لا يمكن لامرأة أن تتقبله، بدأت أتجسس على مكالماته، وأتتبع خطواته خارج البيت، حاولت تغييره وجذبه لصفي، لكن كيف يمكن أن أفلح وأسرة بكاملها تقف أمامي؟ حتى والدي ضد بقائي في دائرة هذا الزواج. بدأت فكرة الطلاق تراودني، كنت أعلم أنها أبغض الحلال عند الله لكن لن تكون أبغض من معاملته لي. لم أعد بالنسبة له أكثر من خادمة، تربي وتكنس وتنظف وتطهو وترفع ساقيها ليلا إن لم يجد من تدفئ فراشه خارج البيت. وجع مر ذلك الذي يغتالني كل يوم. لا زلت في مقتبل العمر وأعاني من مرارة أن تختطف أخريات زوجي. لا أدري كيف تستطيع نسوة تدمير بيوت هي في الأصل ليست متينة الأساس؟ نخسر كل شيء في وقت نحسب معه أننا ربحنا جوهر السعادة، عندما نمسكها نتحسس كنهها فنجدها وهما لطيفا من الصعب الإمساك بها.

الموت الرحيم

اختلف العلماء كثيرا في مسألة الإجماع حول مشروعية القتل الرحيم، للمرضى الذين يعانون ولا سبيل لعلاجهم، ولمن سكت عنهم الدماغ وبقي القلب حيا ينبض. فهذا يشرع وذاك يحرم. لكن هؤلاء جاز عنهم الجدل، فماذا عن آخرين يستحقون فعلا موتا رحيما، أكون واحدة منهم، فاطمة 38 سنة، موجزة عاطلة، توفي والدي وترك لي والدة حملت معها مرض القلب المزمن لأزيد من خمسة عشرة سنة، وقصور كلوي وداء السكري. ولها أسباط هم إخوتي اعتادوا أن أشمر أنا عن ذراعي وأشتغل على ماكينة الخياطة ليل نهار لأسد حاجياتهم ومن لم أوفر له ثمن السجائر أو "بولة حمراء" يقتص مني أشد القصاص حتى لا أعيد الكرة وأأمن ثمن "التبويقة" والكراء وتسديد فواتير الكهرباء والماء. نحن بذلك وبإجماع من جمعيات القلوب الرحيمة وذوي الشعارات الرنانة عن حقوق الإنسان نستحق موتا رحيما، قنبلة تفرز غازات سامة لا تتعب العابرين لحياة البرزخ كثيرا. أكيد لسنا وحدنا حتى لا أكون أنانية ففردوس صديقتي التي تسكن في الحي الموالي لحينا تعاني أكثر مني، زوجها سكير عربيد مقامر، تسبب في فقدانها البصر ثم هرب ولا يزال "روشيرشي"، وحتى إن تم القبض عليه

فسيحولها لجسد مقعد وحده أسامة ثمرة هذا الزواج يعيلها، ترك المدرسة مضطرا، فمن يكفله ويعيل أمه الكفيفة. تستحق صديقتي هذه قتلا رحيما، وربما ابنها أيضا. ربما الطبقة الكادحة بعمالها وفقرائها ومعوزيها يستحقون هذا الحق! وحدها الأقليات التي اجتثت ثروات هذه البلاد الكريمة تستحق الحياة، هل كان هناك من بد منا نحن الفقراء لنكون؟ حتى يحسوا بقوتهم وبالفارق بيننا وبينهم؟ هل الفقراء ضروريون فعلا إن لم يكن هناك من حق لنا في أوطاننا، ربما نستحق منهم على الأقل رحمة بنا وتضامنا معنا أن ينفقوا علينا حقنا لرضعنا ولكبارنا حتى يهلكونا وينهوا نسلنا، فل يدعوا أن هناك حمى/أو طاعونا متفش قاتل، وسيجتث الأخضر واليابس من البشر. فليدعوا بأنهم يجتهدون لإيجاد حل. لكن بشكل بطيء حتى تنفذ جريمة الإبادة الجماعية. مادام هناك لا حق لنا في العيش بترف في أوطاننا فل يشرعوا لنا الموت الرحيم وفلينعموا بالحلال ما داموا هم ورثتنا!

لا نحب إلا الحب

كنت في كل مرة أسامحه، وكان في كل مرة يبتسم بمكر وهو يحيطني بذراعه الأيمن، حيث يحب لزوجته أن تكون، فهو يقدس المقدس كثيرا، كان يظن أني ساذجة وأن حيله وألاعيبه تنطبق علي، وكنت أفتعل حبا أني مؤمنة به، رجل فاشل في كل شيء حتى في الكذب. حاول مرارا ضربي وتعنيفي بالقول قبل اليد، وكان صوتي الجريح يئن، ويتوجع توجع قلبي المغرم به، قلبي الذي يرقد في فراش الاحتضار، كنت أعلم أنه لو توفاني الله يوما لحقق قفزة مهمة في حياته. سيتمكن أخيرا من تحقيق البروز الإعلامي الذي لطالما حلم به رجل سياسي محنك مثله، سيجعل العالم يتعرف عليه، وعلى الفتاة التي قبلت بعدما كانت أميرة على الورق ومع قرائها أن تكون جارية مملوكة له باستمرارها زوجة له، تنفذ فرصه معها وتزيده أخر. بسم ورقة تعتبر الشاهدة على توثيق حبهما، ورقة لا تساوي شيئا أمام صدقها وكذبه، أمام حبها وادعاءاته، أمام وفائها وخداعه. الحقيقة أن كثيرا منا يبحث عن الحب نفسه ليحبه، فنتوهم أننا نحب شخوصا بأعينهم والحقيقة أننا لا نحب إلا الحب.

القوامة

أمي كانت سعيدة لأنها أنجبت أخي/الذكر وما عاد هناك مجال لأن تعير بكونها أنجبت الإناث فقط. سألت أبي يوما لماذا تفضل العائلات إنجاب الذكور بدل الإناث عدا عن كونهن يجلبن العار فهناك فتيات مشرفات يُفتخر بهن أكثر من الرجال؟ قال لي بأن الذكر يحفظ اسم العائلة ويضمن له الامتداد، فالنسل قد يتوقف عن الاستمرار إن لم يولد الذكر بسلالة العائلة. كما أن الذكر يحافظ على العائلة وتكتلها ولا يسمح للأقارب الاستغلاليين بالدخول والتفكير في الهيمنة عليها طمعا في نصيبهم من الإرث في حال عدم تواجد المولود الذكر. كنت أستوعب تلك الأشياء التي كان يقولها. لكن لم نكن نمتلك ما قد يشكل نزاعا ولم نكن ننتمي لعائلة عريقة تحتاج للحفاظ على النسل من أجل تخليد الاسم، ولم يكن والداي حزينين لقدومي فقد فرحا بي فرحهم بأخي. أمي كانت تود ذكرا وكنت أحاول أن أقرأ في عيني والدي ما يبرز حزنه لو كانت المولودة أنثى. كنت أحس تلك الفوارق مع أمي في الحوارات التي تدور بينها والجارات. أبي كان يردد كثيرا على مسامعها بأن الفتيات أبقى للآباء من الذكور إذ تحن على الوالدين، تهتم بهما وترعاهما في كهولتهما. لم يكن الرجل في

وسطي قواما بدليل ألا أحد اهتم بنا بعد رحيل والدي. تمنيت لو يكون الرجل علي قواما، لا أنكر ذلك. تمنيت لو أن هناك من يكفينا حاجياتنا ويهتم بنا، فأنكب على متابعة الدراسة. اليوم في وسطي لا قوامة إلا قوامة ساعدي.

الطفلة القمرية

تتغير رؤيتنا للأشياء التي حولنا، حسب حالتنا الصحية، كم كنت أجرب أن أغمض عيني وأتعامل مع كل ما هو حولي دون أن أراه، إنها لعبتنا الطفولية المفضلة التي نمارسها في الكثير من ألعابنا دون أن ندرك أننا بها نتعرف على حواسنا وقدراتنا وعلى العالم الخارجي بحضورها وغيابها، عندما نحزم أعيننا بشريط ونبحث عن بعضنا البعض. أما عندما ننام ليلا ويسرح شيء بسيقاننا -بسبب انحباس دوران الدم فيها-كنا نحسبه خطى ذئب يمشي بداخلنا ونردد "أيها الذئب اذهب فعمي الذئب سيلحق بك" ماذا لو لم يذهب الذئب وأصر على حبس دماء القدم ولم نستطع الوقوف مجددا؟ كهذه المرأة؟ بعد أن أوصلتُ الخالة أردت المغادرة فلم تدعني أذهب بل ألحت على بقائي، واستطلاع أخباري: "زينب، يتيمة توفيت والدتي منذ فترة وجيزة، أعيش برفقة أختي وداد، ونحن مهددتين بالطرد في أي لحظة من مسكننا المتواضع". أسرعت بإخبار الخالة بوضعي وبكل شيء كي لا تكثر الأسئلة وتتركني بالمقابل أرحل. غير أنها ما زادت إلا تشبثا بي وبفكرة إحضاري وأختي لمنزلها لنعيش معها، لم أستطع الوثوق بها، أردت مساعدتها لتدرك بيتها لا أقل ولا أكثر. شعرت بخوف شديد

عندما اتصلت برجل يلقبونه ب "القلدة" ليأتي كي أدله على عنوان بيتنا المؤقت ليحضر أختي، طمأنتني الخالة المقعدة، وضمتني لصدرها الدافئ الضخم، وهي تصور لي طيب العيش معها، فكرت بعقلي الطفولي عما يمكن أن تقدمه لنا هذه السيدة، على الأقل مسكن وملبس وأكل وشرب. على هذا الأساس رافقت "القلدة" لنحضر أختي وداد، التي ما إن رأتني حتى ضمتني إليها بقوة، وعاتبتني على طول الغياب، قدمت لها ما تبقى من الشطيرة والذي خبأته بشوني، وحكيت لها عن الخالة التي ستحتوينا في بيتها، وتحبنا كما سنحبها. أختي وداد تثق بي كثيرا، غير أنها الطفلة القمرية التي لا يجوز لها الخروج ليلا كي لا تؤذيها حرارة الشمس، فهي كائنة ليلة. تجد صعوبة الإبصار نهارا، وحتى بشرتها الرقيقة تتأذى. طبيبة كانت تشتغل والدتي عندها هي التي استطاعت اكتشاف داء أختي المجهول، وأكدت أن لا علاج لها سوى الوقاية. حاولت أن أشرح للقلدة الأمر. غير أنه لم يستوعب معنى طفلة قمرية.

منذ ذلك اليوم وأنا وأختي نجوب شوارع المدينة طولا وعرضا نبيع الورد، والمناديل الورقية، وأوراق الحظ، أختي تشتغل ليلا، وبالنهار تنظف منزل الخالة، وأنا أشتغل نهارا وأنظف منزل الخالة ليلا. لم أكن أنا وأختي الوحيدتين اللتين تترأس عصابتنا الخالة فقط، بل وراءها تنظيم ليس بالهين،

يسرقون الأطفال ويتاجرون بأعضائهم، ومنهم من له جسم سليم يُبعث للعمل في البيوت أو البيع أو سعي دراهم بدعوى المرض أو العجز أو الحاجة لاستعطاف قلوب الناس، وعندما نكبر تلقي بنا لدور الدعارة لتهان أجسادنا، وعندما نهرم تلقي بنا في الشارع، إذ تخلص صلاحيتنا بوقت مبكر بسبب كل الشقاء الذي نعانيه. هل الملاجئ ودور الأيتام والخيريات أغلقت أبوابها وصودرت مفاتيحها في بلادنا؟ إن كانوا يتجاهلوننا عنوة لأننا نحرك اقتصاد البلاد من جهة خفية لذلك يتغاضون عنا، فهذا جرم يعترف به القانون دون أن يطبقه. الواحد منا إن كبر وأصبح مجرما قد يعتدي على أحدهم، وهذا الأحد سيحتاج للطبيب والفحص وكشوف وأدوية تقتنى من الصيدليات، ومصاريف، ومواصلات، وأجر يدفع لمحامين، وسجانين، وتجار مواد غذائية، وضمان عيش لآخر يقتات وأبناءه بتغسيل الموتى وحفر القبور...ياه كم تساهم هذه الخالة في تنمية الاقتصاد عالميا!

مبدأ الخالة كان "أنا والطوفان من بعدي" وكان نفسه مبدأ الجهات المسؤولة والتي من المفروض أن تسعى لفك مثل هذه الجرائم الجماعية التي تساهم في إبادة أجيال بأكملها، لكنه قانونهم الطاغي على حساب أجسامنا الضعيفة: "أنا والطوفان من بعدي" عنوان قانون البشر لا الغاب فقط.

ذكرياتي وحدي

مولاي أحمد، والدي، كان يقطن مع عائلته في طفولته المبكرة في قرية "ميبلادن" وهي قرية تابعة لعمالة ميدلت، كان يشتغل بشركة لمستعمرين أجانب مع جدي وبعض الأعمام وآخرين، لا قرابة غير قرابة الوطن والفقر كانت تجمعهم ، أذهب عمله في التنقيب عن المعادن النفس النقي للرئتين، فقد مرض ب:" السيليكوز"، هذا المرض الذي حول رئتيه لإفرازات دموية تنتج عن السعال الشديد الذي كان يفزعنا كلما اشتد، الغريب في الأمر أنه لم يشتد إلا بعد مرور عمر من مغادرته وعائلته قرية مبلادن، للبيضاء، أغلقت حينها الشركات الأجنبية ولم يعد هناك مجال للعمل، فاتجه للصيد حاول أن يعبر البحر مرة فأعادته السلطات الإسبانية بعد سجنه ثلاثة أشهر بسبب الهجرة غير الشرعية، ثم عاد ليشتغل بأحد المعامل الصناعية الكبرى بالبيضاء و المتخصصة في صناعة إطارات السيارات، غير أن جسده الضعيف لم يكن وفيا له كفاية، فقد عاد المرض من جديد واشتد بسبب التدخين.. كانت أمي تنهاه كثيرا عن التدخين خوفا عليه، لكن لم يكن ليمتنع بل كان يدخن جهارا، كميات كبيرة من النيكوتين والتبغ يرسلها لرئتيه المريضتين كل يوم، أكثر حتى من نسبة

الأكسجين النقي الذي يعبر إليهما. ناهيك عن التلوث المفرط لهواء هذه المدينة الصناعية، كان هواء مدينة ميدلت نقيا وكانت قريتنا ميبلادن هادئة ينام الطير في حضنها حتى الظهيرة.

لازلت أتذكر شيطنتي عندما كان والدي يبعثني لأقتني له أصابع السجائر، كنت أنتظر ريثما ينهيها وأصلي من كل قلبي أن يبقي فيها الشيء الكثير لأختبر تلك اللفافة التي يتشاجر مع والدتي لأجلها وكأنها أنثى أخرى ستسلبها قلبه دونها. كان يلقيها مشتعلة ويمضي، وكنت آخذها بعده، وأركض لدورة المياه ثم أحكم إغلاق الباب علي وأحاول أن أدخنها بنفس طريقته، أحاول أن أستنشقها بفمي وأخرج رائحتها من أنفي، وكان الزكام يشتد علي، كنت أترك صنبور الماء مشتعلا ليغطي خريره صوت زكامي، ثم أعيد الكرة من جديد دون أن أفهم سر عشقه وإدمانه على السجائر. لم أكن الوحيدة التي تحاول ذلك، فقد رأيت مرة طفلا صغيرا يطلب من ابن الجيران أن يعطيه السيجارة ليختبرها قائلا:

-عطيني ندير أوف.

إن الأمر مرتبط باكتشاف العالم المحيط، لم يكتشف أحد حينها أني أدخن لفافات السجائر التي يتركها والدي، لكن لم أحاول ولا مرة أن أقتنيها لنفسي. حاولت مرة تشريح السيجارة فوجدتها مليئة بالنيكوتين والقطران والتبغ، وعلمت أن الأشياء

المستعملة بداخلها كانت تستعمل من أجل مداواة صداع الرأس، كانت دواء ملكيا، لكنها كانت من أسباب هلاك والدي بعد معاناة المرض الناتج عن العمل في مناجم وكهوف المعادن بقرية ميبلادن، كنت أحتاجها لأتذكره، كنت أحتاجها، مهما آذتني أحتاجها. ربما علاقتي بها أصبحت علاقة صداقة بطريقة أو بأخرى، لعلني أحتاج لسلك نفس سبيل هلاك والدي، فأحيانا إن تقاسمنا معاناة نهاياتنا أحسسنا ببعضنا أكثر.

سيدة الليل

رقية شابة في مقتبل العمر، ذات بشرة وردية، عيون وشعر أسودين سواد الليل، قدها مليح، وقلبها بريء...لامست حينها أنه من الصعب جدا وقد جاءت إلى الدنيا نتيجة خطيئة أن تتابع الحياة بشرف، فقررت أن تعيش بنفس الخطأ الذي اقترفته والدتها، فقط أمها كانت عاشقة وهي ستكون فعلا بائعة هوى. أصبحت تشتغل في الفندق، ولكنها لم تطل البقاء فيه بعدما جاءتها دعوة للاشتغال بإحدى الحانات الليلية في البيضاء، راقصة تعرض جسدها وجليسة تدخل البهجة لقلب مجالسها فتجعل من جسدها آلة تعزف موسيقى تدخل المتعرض لسماعها لحالة من الفقدان والضياع بين قسمات هضابها الطافحة بالفتنة والحياة، الحقيقة أن رقية كانت بطريقة أو بأخرى تنتقم من جسدها ومن كل امرأة سمحت لرجل بالاقتراب من جسدها، والعبث بها، كانت تحب الانتقام. وتستلذ بفعل التعذيب الذي تقدم عليه.

استغربت و للاعيشة تحكي كيف استطاعت أن تقبل رقية وهي تحترف الفحش في منزلها، لكنها فعلا محقة فلا يجب نبذها من المجتمع بصفة كاملة كما تم نبذ والدتها من تيفلت وهي من الرماني، أحيانا مهما عظمت ذنوب الناس فهذا لا يعني

أن يـتم إقصـاؤهم، ذلـك الإقصـاء هـو الـذي يطيـل مـن أمـد الضياع، كانت رقية محتاجة لمن يحملها كالطفلة بين يديه و لا يتركها وحيدة في طريق مظلم مليء بالشوك، لـو كانـت تمتلك المال الكافي لمتابعة دراستها لما احتاجت للعمل، ولـو كان هنـاك مـا يمنـع الاعتـداء الجنسـي سـواء كـان لفظيـا أو جسـديا لمـا تعرضـت للاسـتغلال بعملهـا بأبشـع الطرق...حتـى لـو اشـتكت لخسرت العمل و نفسها.

تجار الحب

لا نقرر أبدا أن نحب هذا ولا نحب ذاك، قد تلتقي العيون على عجل، أو على مهل، فتتسلل صاعقة الحب متلبسة بخيوط الشمس، تجعل القلب يضخ الدم بسرعة فيجري في العروق جريانا عجيبا يبث الحياة في الجسم والروح معا، تتغير حياتنا، أهدافنا، حدود خريطة وطننا، تطلعاتنا للحياة، نكون واحدا فنصبح اثنان والحقيقة أننا أيضا واحد على هيئة اثنين. سمعت كثيرا عن قصص الحب والهوى، وعن قصص العشق وموت العاشقين في سبيل من يحبونهم، ولم أتوقع أن اسمي قد ينضاف يوما للقائمة، كنت أشبه بالبلبل الذي ضحى بنفسه ليحقق حلم الوردة البيضاء. لتصبح ذات لون أحمر فتصبح رمز الحب والتضحية والوفاء، لا يدرك العشاق قيمة تلك الوردات التي تمسكها أيادي البائعات ولا تدرك البائعات أنهن يتاجرن بقصة حب. كانت الوردة الحمراء أول عهد يقدمه لي على مرأى من المطر، وقوز قزح الذي يزين سماء تلك المدينة المنبسطة سهولها، تلك المدينة التي لم أكن أتوقع يوما أن تعطيني الحياة وتسلبها مني، كم أحتاج للعودة إليها الآن لأدفن تلك الوردة التي قست عليها الطبيعة ويبست وريقاتها. ماذا أماثل غير مصير الورود. عمرها قصير يذكرنا الربيع بقصتها

كلما توالت بعده الفصول. يحسب الناس أن الربيع بداية فرح وسرور، فرصة جديدة للحياة، ولا أراه إلا أوفى ذكرى للبلبل والوردة.

لم يبتع الوردة ولكنه اختلسها من حديقة ورد، مقررا في قرارة نفسه أنها ستغير قدره، ولم تغير إلا قدري. تشابكت بعد شهور أصابع أيدينا، تعانقا، وعانقهما الحب تحت جناحه، رقت لهما الدنيا وهما يحلمان، وقست عليهما وهما يستفيقان، والقدر يحول بين أصابعنا. كم تبدوا ناعمة وجميلة وهي في عناق يكسر تلك الأغصان الدقيقة التي تشكل هيكل اليدين. ما ذنب اثنين إن أحبا بعضهما والكون كله يحول بين قلبيهما، ماذا يفعل العاشق العاطل عن الزواج؟ الزواج في بلدي يحتاج للعمل والمال وإن كان قليلا المهم أن يكون دائما، مهما اشتد التزام الأسر وآمنت ب "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه"، فالحقيقة الواحدة التي يؤمنون بها هي "إذا جاءكم من ترضون مداخله وممتلكاته فزوجوه". عندما يشتاق العاشقان لبعضها ويلهبهما العشق يبحثان عن نوافذ تدخل منها الحياة، فيحتج سكان الأرض لا يشفقون ولا يرحمون بدرة تنمو بداخل بشرين ليس لهما يد في أن أحبا بعضهما وليس لهما يد في أن عالمهما يمنعهما حق الحياة! يتقلص الحب وينكمش بدواخلهما فالعالم خارجا بارد ومخيف. وتبدأ متاهات

البحث والفقدان والضياع: من المسؤول؟ هل نلق اللوم على النظرة الأولى لك والثانية عليك؟ هل نلق اللوم على الأهل أم على فراغ خزائن البلاد؟

ضيعوا أيها العشاق فجيوبكم لا تؤهلكم للسكن والرحمة، وفل يستمر الورد الأحمر يردد قصة البلبل والوردة الحمراء.

تمت

فهرس الموضوعات

ثمرة الصنوبر 3
زوجة ثانية 41
لماذا قد أرفض الزواج! 44
قضية شبه 46
أحيانا قد نحترق دون أن نقترب. 49
فشل في الحياة 52
التقاط الشهب 54
المستنسخة "ب 2" 56
المذكرة الممنوعة 57
هندسة الأطفال 61
الوهم 62
من قال إن الدمى لا تبكي؟ 65
أشياء جميلة 67
مجرمة بالتسلس 69
أيام عصيبة 71
البقشيش 74
الصندوق 76
الحياة بنا 78
اليتيمة 80

جرائم الحب 82
ضائعون في أوطانهم 85
الرق والكراسة 87
مذكرات امرأة 89
لن نلتق 91
نساء "بدون" 93
الدمى البدوية 94
زنبقة الحب 96
شيك الجسد الموقع على بياض 97
زهرة الليزانيس 99
رجل يشبه الوطن 101
دراما القلوب 102
فاقد الشيء لا يعطيه 104
الشقاء 106
فوبيا الحب 108
أحلام معلقة بك 109
رجل حرب لا حب 110
نبتة الصبار 112
اتحاد فيتونيا والصبار 113
الوطن بعيدا 114
انكسار المركب 116

الموت الرحيم 118
لا نحب إلا الحب 120
القوامة 121
الطفلة القمرية 123
ذكرياتي وحدي 126
سيدة الليل 129
تجار الحب 131